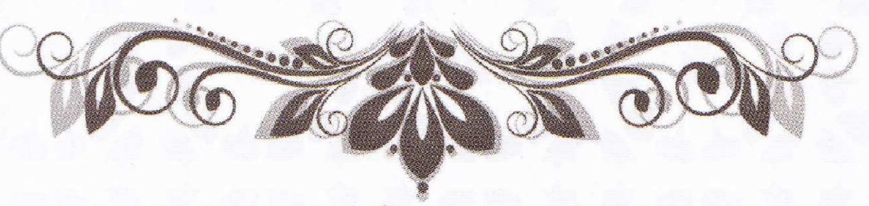




القِلادَةُ الذَّهَبِيَّةُ

شرح المنظومة القلبية



نظمها وشرحها

د. صالح عبد الكريم البلوشي

مدير برنامج الدراسات الإسلامية
واللغة العربية بجامعة جميرا
في دبي

مكتبة وتسجيلات دروس الدار






رفع
عبد الرحمن النجدي
أسكنه الله الفردوس
www.moswarat.com



القلادة الذّهبيّة

شرح

المنظومة القلبيّة

نَظَمها وشَرَحها

د. صالح عبد الكريم البلوشي

مدير برنامج الدراسات الإسلامية واللغة العربية
بجامعة جميرا في دبي

الدار
مكتبة وتسجيلات دروس الدار



الطبعة الأولى

١٤٤٢هـ - ٢٠٢٠م

رقم إذن الطباعة والتداول

MC-02-01-6483186

تاريخ إذن الطباعة

26-9-2020

التصنيف العمري

E

الرقم الدولي

978-9948-25-209-2

التواصل مع المؤلف

mnhj77@hotmail.com

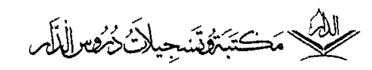
الإمارات العربية المتحدة

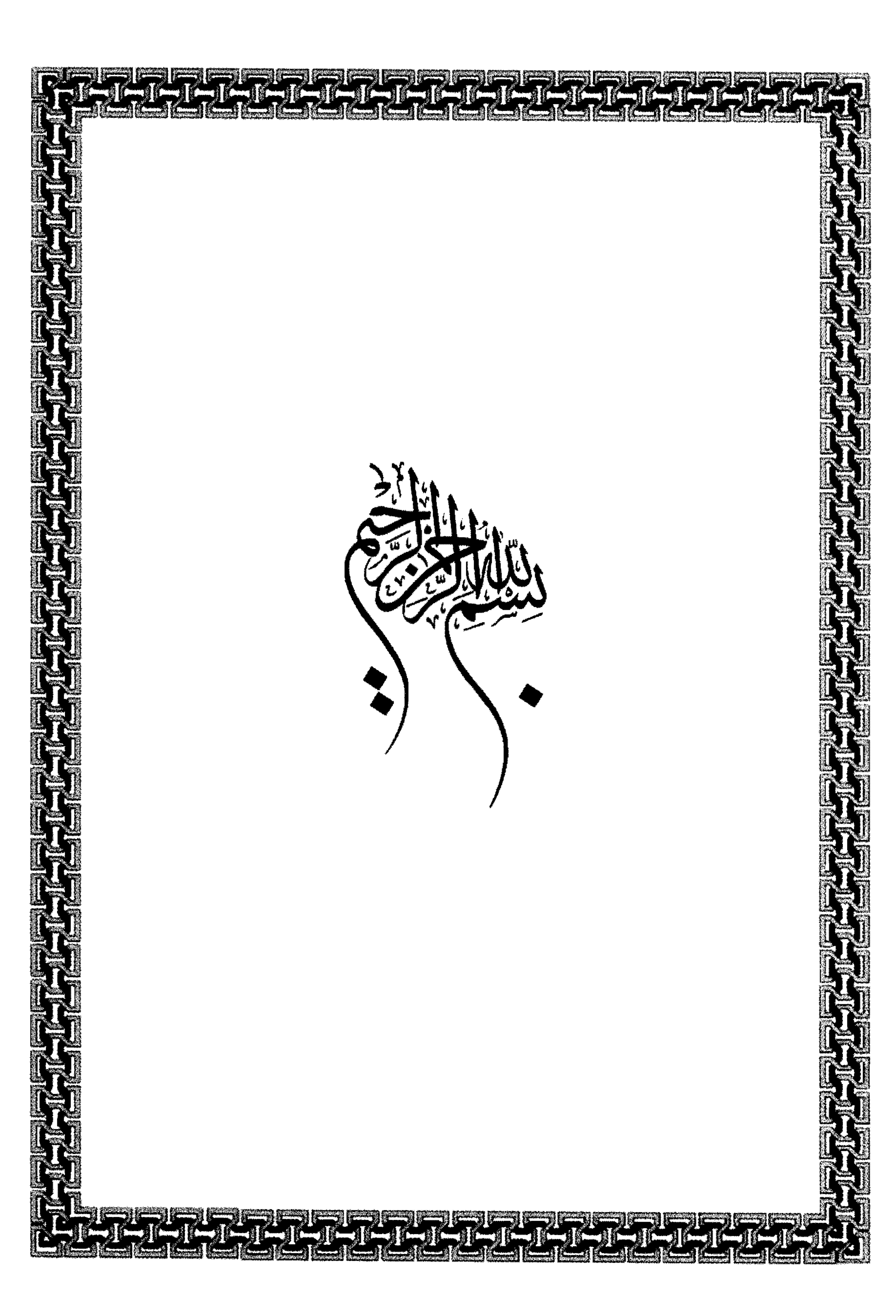
الشارقة

البريد الإلكتروني: droosaldar@gmail.com

التواصل: 00971503667077

تويتر : Droosaldar




بسم الله الرحمن الرحيم



مقدمة الشارح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله علَّامِ الغيوب، أحمده وأشكره على نِعَمِه ما تعاقب الشروقُ والغروب، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريكَ له، حثَّنا على سلامة القلوب، وحذَّرنا من المعاصي والذنوب، وأشهد أنَّ محمداً عبدُه ورسولُه ﷺ، دلَّنا على خير الدروب، وعلى من تبعه في الرخاء والخطوب.

أما بعد:

فإن المتأمِّل في كتاب الله يجد الكثيرَ من الآيات التي تتحدث عن القلوب وأعمالها، وأسبابِ سلامتها وأنواعِها، كما يجد المئات من الأحاديثِ الصحيحة حولَ أعمالِ القلوب، ووقايتِها من المفسدات والذنوب، وهكذا جاء عن السلف في هذا الباب زَخَمٌ من الآثار، والمواقف والأخبار، واحتفت المدوَّناتُ الحديثيةُ بالأبواب القلبية[1]، وظهرت المصنَّفات الزُهدية[2]؛

(١) ومن ذلك على سبيل المثال باب الصبر في الأذى، وباب الرجاء مع الخوف في صحيح البخاري، وباب الحضِّ على التوبة والفرح به، وباب فضل دوام الذكر والفكر في صحيح مسلم، وباب في الحياء في سنن أبي داود، وباب ما جاء في الزهادة في الدنيا في سنن الترمذي، وباب ثواب من صبر واحتسب في سنن النسائي، وباب التوكل واليقين في سنن ابن ماجه.

(٢) مثل كتاب الزهد لعبد الله بن المبارك، وكتاب الزهد لأحمد بن حنبل، وكتاب الزهد لهنَّاد السَّري، وغيرها من الكتب المستقلة في هذا الباب، إلى جانب الكتب التي وسمت بالزهد ضمن مدونات الحديث.

ليؤكِّد كلُّ ذلك ضرورةَ العناية بالقلوب، وما يحقق لها النجاةَ والسلامة يوم الكروب.

ومع وجود العديد من المصنَّفات قديمًا وحديثًا إلا أنَّ الكثير منها لا يخلو من الهَنَات، ومع كثرة الشهوات والشبهات، وحاجة النفوس للتذكير بوظائف القلوب والعظات، وسهولة ضبط المعرفة من خلال المنظومات، عنَّ لي أنْ أُسْهِمَ بجُهد المقلِّ في تقريب ما في هذا العلم من العبارات، وتوضيح بعض الاصطلاحات؛ من خلال هذا النَّظم المختَصرِ الموسومِ بـ«**المنظومة القلبيّة**»، مع شرحه الموسوم بـ«**القلادة الذهبيّة**».

وجاءت فكرةُ المنظومة في شهر رمضان المنصَرم حينما كنتُ أعلِّقُ علىٰ رسائل الحافظ ابن رجب الحنبلي في أبواب السلوك والأعمال القلبيَّة، فاستعنت بالله، وبدأت حينها بنظمِ بيت في كل يوم علىٰ وجه التريُّث والرويَّة، حتىٰ تكاملت المنظومة - بفضل الله وحده - بعد شهرين من الكتابة والمراجعة الدورية.

وجاءت المنظومة علىٰ بحر الرَجَز، مع اختيارِ سلسِ الكلمات، وإنْ وُجْدت في مواطن منها بعضُ الزحافات، فذلك لطبيعة الموضوع والضرورات، وحرصت فيها علىٰ اختيار العبارات المختَصَرة، وتسليطِ الضوء علىٰ أهم مباحث العلم المُقرَّرة، من الماهيةِ والأهمية، وتفاضُلِ وتلازُمِها أعمالِ القلوب وعلاقتها بالجوارح، وأقسامِ القلوب وأعمالِها ومفسداتها.

والقصدُ من النَّظم حصولُ التصوُّر العام لعلم القلوب وأبرزِ مسائله، وقد جاء الشرحُ متوسِّطًا مع الحرص علىٰ تكثيف النصوص والآثار في كل موضوع، والنقلِ عن المحقِّقِين في مسائلِ هذا العلم، لا سيما من بساتين



طبيب القلوب ابنِ قيم الجوزية رَحِمَهُ ٱللَّهُ. وفي شرح أعمال القلوب اقتصرتُ علىٰ التعريف، وأبرزِ الثمرات، وسبلِ الوصول للمنزلة، وفي بيانِ المفسدات بيَّنْتُ التعريفَ، ثم المضارَّ لهذا المفسِد علىٰ القلب.

هذا والشكرُ لله العليِّ الكريم علىٰ توفيقه وامتنانه، وجوده وإحسانه؛ حيثُ يسَّر إتمامَ النظم وشرحَه، وأسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أنْ يجعله لوجهه خالصًا، ولسنة نبيه صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ موافِقًا، ولعباده نافعًا.

ثم امتثالًا لقول النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**من لم يَشكر الناسَ لم يشكرِ الله**»[1]؛ أتوجَّه بالشكر لإخواني المشايخِ الفضلاء الذين راجعوا معي مادةَ النظم، وأَثْرَوْهُ بزوائدَ وتصويبات، وفوائدَ وتوجيهات، فجزاهم الله خيرَ الجزاء وأوفاه.

وفي الختام أسأل الله أنْ يرزقنا العلمَ النافعَ والعملَ الصالحَ، والإخلاصَ في القول والعمل، والسلامةَ من الفتن، ما ظهر منها وما بطن.

وَصَلَّىٰ اللهُ عَلَىٰ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا

كتبه

د. صالح عبد الكريم البلوشي
يوم السبت ١٣/ ١١/ ١٤٤١ هـ
الموافق ٤/ ٧/ ٢٠٢٠م

(١) أخرجه الترمذي في سننه، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، برقم (١٩٥٥)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٤١٦).





نص المنظومة

المنظومة القلبيّة

المقدمة

يا سائراً لعالمِ الغيوبِ	وآملاً سعادةَ القلوبِ
خُذْ نهجَهُ من منبعِ الفرقانِ	ومثلَهُ من سنةِ العدنانِ
صُنْهُ أخي مِن تِيهِ كُلِّ مُحْدَثَهْ	لا تَأخَذَنْ عن الهوىٰ أو حادثهْ
فالحقُّ واضحٌ صريحٌ أبلجُ	وما عداهُ باطلٌ ولجلجُ

ماهية القلب وأهميته

وَخَلِّصِ القلبَ مِن التَّغيُّرِ	عُضوُ مشاعرٍ كما الصنوبرِ
وَحَلِّهِ بالخيرِ والفَوائدِ	لتُبصرَ النَّجاةَ في الشّدائدِ
وَهْوَ محلٌّ للرُّقِيِّ والظَّفَرْ	نَهْجُ الصلاحِ فيه مَكْمَنُ الدُّرَرْ
وَهْوَ أجلُّ ما إليه ينصرفْ	جهدُ المريدِ للفَلاحِ والشَّرَفْ

تفاضل أعمال القلوب وتلازمها وعلاقتها بأعمال الجوارح

إيمانُنَا فالنُّطقُ باللسانِ	عقدُ الفؤادِ عملُ الأركانِ
فالقلبُ أصلٌ: والجوارحُ تَبَعْ	مَنِ اعتَنَىٰ بالأصلِ والفَرْعِ ارتَفَعْ
تفاضلُ الأعمالِ أيضًا حاصلُ	تلازمٌ لا يَخْدَعَنْكَ الصَّائلُ

أقسام القلوب

ثُمَّ القلوبُ فَسَلِيمٌ مِن شُبَهْ	ومِن ذُنوبِ عند ذِي عقلٍ نَبَهْ
وعكسُه المَيِّتُ لا يُقَادُ	بينهما العليلُ قدْ يُقادُ



أعمال القلوب

أعمالُها كثيرةٌ دقيقهْ	وخذ صفاتها علىٰ الحقيقهْ
إفرادُك الحقَّ بحُسنِ مَقْصَدِ	يُعرف بالإخلاصِ والتَّجرُّدِ
كَذاكَ ميلُ القلبِ مَعْ تعظيمِ	فذلكُم محبَّةُ الكريمِ
كذا الرَّجاءُ: ثقةٌ بالجودِ	من الإلهِ خالقِ الوجودِ
والخوفُ قلْ تألُّمُ الأوَّابِ	مستحضراً مرارةَ العقابِ
توكُّلٌ أخذُكَ بالأسبابِ	معتمدًا فيه علىٰ الوهَّابِ
ثُمّ التُّقىٰ فعلُكَ ما أُمِرْتَا	كذاك أنْ تتركَ ما نُهِيتَا
والورعُ التَّرْكُ لما فيه الضَّرَرْ	خوفًا وإخباتًا لخالقِ البشرْ
وإن تُرد معرفةَ الخشوعِ	فالذلُّ للهِ مع الخضوعِ
ثم عتابُ القلبِ فالمحاسبهْ	خوفًا من العذابِ والمعاتبهْ
واستحضِرَنْ أنَّ الرَّقيبَ يعلمُ	ما يُعلِنُ العبدُ وما يُكَتِّمُ
تَفَكُّرٌ: تأمُّلُ الدلائلِ	والشكرُ قُلْ ذكرُك للفضائلِ
ثمَّ سُكونُ النَّفس إنْ حان القَضَا	وحبسُها عن جزعٍ ذاك الرضا
وحبسُها أيضًا إذا بُليتَا	كفًّا ومنعًا فاصطبرْ جُزيتَا
وغيرةٌ؛ حميَّةٌ للشرعِ	ثم الحياءُ باعثٌ للمَرْعِي
وكلُّ ما قبَّحه الشرعُ فَذَرْ	والعرفُ إنْ وافق شَرْعًا يُعْتَبَرْ
قُلِ: اليقينُ قوَّةُ الإيمانِ	تواضعٌ وسَكَنُ الجنانِ
والتوبةُ الإقلاعُ عن ذنوبِ	ونَدَمٌ علىٰ اقترافِ حَوْبِ
والعزمُ ألا للذنوبِ يَرْجِعَا	كذاك إنْ كانت حقوقًا أَرْجَعَا
إنابةٌ قلْ سرعةُ الرُّجوعِ	إلىٰ الهدىٰ والخيرِ بالخضوعِ



مفسدات القلوب

والمَيْلُ مفسدٌ لها فلتذكُرِ	للشركِ أو لشهوةٍ ومنكَرِ
وبدعةٍ، وغفلةٍ، نفاقِ	والحسَدِ، الكبرِ، كذا الشقاقِ
ثم الفضولِ، أو هَوَىٰ المُحَقَّرَهْ	والعشقِ، والوسوسةِ المُصَغِّرَهْ
والعجبُ والرياءُ ثم الترفُ	إنْ مسَّتِ القلبَ أتاهُ التلفُ
فاحرصْ علىٰ لزومِه دربَ الهدىٰ	وداوِهِ كي لا يميل للرَّدىٰ

الخاتمة

حافظْ علىٰ جواهرِ الفؤادِ	زادُكَ يومَ الحشرِ والمعادِ
ثم استعنْ عليهِ بالدعاءِ	وردِّدنْ يا مُجزل العطاءِ
ياسابغَ الخيراتِ للعبيدِ	ثبت قلُوبنا علىٰ التوحيدِ
تمت هنا الأرجوزةُ البهيَّهْ	عنوانُها «المنظومةُ القلبيَّهْ»
بحمدِ ربِّنا العليِّ نُظِمَتْ	وبالصلاةِ للأمينِ خُتِمَتْ



شرح المنظومة





مقدمة المنظومة

المقدمة

يا سائراً لعالمِ الغيوبِ	وآملاً سعادةَ القلوبِ

بدأ الناظمُ نظمه بحسنِ استهلال، إشارةً لموضوع النظم المتعلِّق بالقلوب، حيثُ جاء الشطر الأول للإشارة إلىٰ السَير إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومخاطبةِ السائر إلىٰ عالِم الغُيوب. وعلم القلوب من الباطن الذي لا يطَّلع عليه إلا ربُنا العالمُ بالخَفِيَّات والغيوب، والمؤمنُ في هذه الدار في رحلةٍ وهجرة عظيمة. قال رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا لِي وَلِلدُّنْيَا، مَا أَنَا فِي الدُّنْيَا إِلَّا كَرَاكِبٍ اسْتَظَلَّ تَحْتَ شَجَرَةٍ ثُمَّ رَاحَ وَتَرَكَهَا**»[1]، وقال في وصيته لابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: «**كُنْ فِي الدُّنْيَا كَأَنَّكَ غَرِيبٌ أَوْ عَابِرُ سَبِيلٍ**»[2]. وهذه الهجرةُ تحتاج إلىٰ زادٍ وقوةٍ عِلمِية وعَمَلِيَّة، لأنَّ الطريق طويلٌ محفوفٌ بالعقَبَات، والصِعاب والمنْعَطَفَات، ومن أعظمِ الزَّاد أعمالُ القلوب التي هي أصلُ الهجرة إلىٰ ربِّ البريَّات.

وفي الشطر الثاني تحفيزٌ وتشجيع لمن أراد سعادةَ القلوب وراحتَها

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٢٣٧٧)، وابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب مثل الدنيا، برقم (٤١٠٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٨٠٠).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب قول النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل»، برقم (٦٤١٦).

وسكينتَهَا، فإنَّه سيجدُ ذلك في معرفة منازل القلوب والعملِ بها، التي تُؤخَذُ وتُضْبَطُ من الوحْيَين، كما سيأتي في البيت الثاني.

وقد أشار ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلىٰ هذه المعاني في كلامٍ نفيسٍ حيث قال: «وكذلك السائرُ إلىٰ ربِّه إذا أبصر الطريقَ وأعلامَها، وأبصر المعاثِرَ والوهادَ والطرقَ الناكِبَة عنها؛ فقد حصل له شطرُ السعادة والفلاح، وبقيَ عليه الشطرُ الآخَر، وهو أنْ يضعَ عصاه علىٰ عاتقه، ويُشَمِّرَ مسافراً في الطريق قاطعاً منازلها منزلةً بعد منزلة»[1].

(١) ينظر: طريق الهجرتين، لابن قيم الجوزية، (ص ١٨٧).



خُذْ نهجَهُ من منبعِ الفرقانِ ومثلَهُ من سنةِ العدنانِ

يذكر الناظم في هذا البيت ضابطًا مهمًّا حول مصدر علمِ منازلِ القلوب وتفاصيلها؛ فهي تُؤخَذ وتُضْبَط بما جاء في كتاب الله وفي صحيح سنة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «فَمَنْ بَنَىٰ الْكَلَامَ فِي الْعِلْمِ: الْأُصُولَ وَالْفُرُوعَ؛ عَلَىٰ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْآثَارِ الْمَأْثُورَةِ عَنْ السَّابِقِينَ فَقَدْ أَصَابَ طَرِيقَ النُّبُوَّةِ، وَكَذَلِكَ مَنْ بَنَىٰ الْإِرَادَةَ وَالْعِبَادَةَ وَالْعَمَلَ وَالسَّمَاعَ الْمُتَعَلِّقَ بِأُصُولِ الْأَعْمَالِ وَفُرُوعِهَا مِنْ الْأَحْوَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ عَلَىٰ الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ وَالْهَدْيِ الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فَقَدْ أَصَابَ طَرِيقَ النُّبُوَّةِ، وَهَذِهِ طَرِيقُ أَئِمَّةِ الْهُدَىٰ»[1]. هذا إلىٰ جانبِ مراعاةِ فهمِ السلفِ الصالح، والعناية بآثارهم حولَ نصوصِ أعمال القلوب وأحوالها، ففهمُهم ليسَ كَفَهمِ غيرِهم، فقد عاصَروا التنزيلَ، وفقِهُوا التأويلَ، وعرفُوا القرائنَ المُحْتَفَّة، مع ضميمةِ قوةِ اللغة.

قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «يَحْتَاجُ الْمُسْلِمُونَ إلَىٰ شَيْئَيْنِ: أَحَدُهُمَا مَعْرِفَةُ مَا أَرَادَ اللهُ وَرَسُولُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَلْفَاظِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ بِأَنْ يَعْرِفُوا لُغَةَ الْقُرْآنِ الَّتِي بِهَا نَزَلَ، وَمَا قَالَهُ الصَّحَابَةُ وَالتَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانِ وَسَائِرُ عُلَمَاءِ الْمُسْلِمِينَ فِي مَعَانِي تِلْكَ الْأَلْفَاظِ، فَإِنَّ الرَّسُولَ لَمَّا خَاطَبَهُمْ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَرَّفَهُمْ مَا أَرَادَ بِتِلْكَ الْأَلْفَاظِ، وَكَانَتْ مَعْرِفَةُ الصَّحَابَةِ لِمَعَانِي الْقُرْآنِ أَكْمَلَ مِنْ حِفْظِهِمْ لِحُرُوفِهِ، وَقَدْ بَلَّغُوا تِلْكَ الْمَعَانِيَ إلَىٰ التَّابِعِينَ أَعْظَمَ مِمَّا بَلَّغُوا

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ٢ / ص ٢٧٨).

حُرُوفَهُ»[1]. وهذه هي حقيقةُ العلم الذي تَحْصُلُ به السلامةُ في مثل هذا البابِ الدقيقِ المرتَبِطِ بالاعتقاد، فمَنْ جعل الكتابَ والسنةَ علىٰ فَهْمِ سلف الأمة نبراسًا له في هذا الطريق فقد هُدي ووُفق.

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١٢/ ص ٤).



لا تَأخَذَنْ عن الهوىٰ أو حادثهْ	صُنْهُ أخي مِن تِيهِ كُلِّ مُحْدَثَهْ

أشار الناظمُ في هذا البيت إلىٰ ضابطٍ آخرَ في علمِ منازلِ القلوب، ألا وهو صيانتُه من المحدَثات، فلا يُؤخذ هذا العلمُ - الذي مصدرُه الوحي - من الهوىٰ والحادِثات، والأذواقِ والمنامات. قال ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومما أُحدِثَ من العلوم، الكلامُ في العلوم الباطِنَة من المعارف وأعمالِ القلوب وتوابع ذلك، بمجرَّد الرأي والذوق أو الكشف، وفيه خطرٌ عظيمٌ، وقد أنكره أعيانُ الأئمة كالإمام أحمدَ وغيرِه»[1]، فالفَطِنُ هو الذي يأخُذُ العلومَ من مظَانِّها الصحيحة، ويتجنب المصادرَ الرديئةَ. قالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ»[2].

وفي البيت الأول إشارةٌ إلىٰ مآلِ المحدَثات؛ فهي تورِث الحيرةَ والتِّيهَ والضياع، ويتأكَّد في هذا الباب الحذرُ من المصطلَحات والمنازِل والمقامات المحدَثة التي تنطوي علىٰ مخالفات.

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وتزكية النفوسِ أصعبُ من علاج الأبدان وأشدُّ، فمن زكَّىٰ نفسه بالرياضة والمجاهدة والخلوة التي لم يجئ بها الرسلُ، فهو كالمريض الذي يعالج نفسَه برأيه، وأين يقع رأيُه من معرفة الطبيب؟ فالرسلُ

(١) ينظر: بيان فضل علم السلف علىٰ علم الخلف، لابن رجب، (ص ١٥).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا علىٰ صلح جور فالصلح مردود، برقم (٢٦٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة وردّ محدثات الأمور، برقم (١٧١٨)

أطباءُ القلوب، فلا سبيلَ إلىٰ تزكيتها وصلاحها إلا مِن طريقهم، وعلىٰ أيديهم، وبِمَحض الانقياد والتسليم لهم، والله المستعان»[١]. وأهل الصواب وَسَطٌ في هذا الباب بين أهل الإفراط والتَّفْريط، بين مَنْ أهمل أعمالَ القلوب ونفاها، وبين من ابتدع وأحدث فيها، وكلٌّ من الإفراط والتفريط تضييعٌ لأمر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، واستجابةٌ لنزَغات الشيطان. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «دينُ الله وسطٌ بين الغالي فيه، والجافي عنه، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ما أَمَرَ عبادَه بأمر إلا اعترض الشيطانُ فيه بأمرين لا يبالي بأيهما ظَفَرَ، إما لإفراطٍ فيه، وإما تفريطٍ فيه»[٢].

📖📖📖

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٣١٥).
(٢) ينظر: الوصية الكبرىٰ، لابن تيمية، (ص ٥٦).

فالحقُّ واضحٌ صريحٌ أبلجُ   وما عداهُ باطلٌ ولجلجُ

خَتَمَ الناظم المقدمةَ بالإشارة إلىٰ مثل شهيرٍ يذكره أهلُ العلم، وهو قولهم: «الحقُّ أَبْلَجُ والباطلُ لَجْلَجٌ»[1]، ومعناه أنَّ الحقَ واضحٌ مشرقٌ، والباطلُ ملتبِسٌ ومختلِط، فالحقُ في هذا العلمِ واضحٌ ناصعٌ أبلجُ كالصباح، له مناراتٌ وحُجَجٌ بيِّنات؛ قال رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَىٰ الْبَيْضَاءِ، **لَيْلُهَا كَنَهَارِهَا، لا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ**»[2]، بخلافِ الباطلِ وطُرُقهِ، فهي مُظلِمةٌ مختَلِطةٌ يَحارُ أهلُها، لأنَّها لم ترتبط بالأدلة واليقين، ولم تقم علىٰ البراهين، بل علىٰ الظنِّ والتَّخمين، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ [يونس: ٣٦].

والخلاصة لمَن أراد السلامة

لزومُ الكتاب والسنة بفَهم سلف الأمَّة، فهو الطريق الواضح المستنير، وما عَدَاه تكَلُّفٌ وتَنَطُّعٌ وشرٌ مُسْتَطِيرٌ.

(١) ينظر: مجمع الأمثال، للميداني، (م ١ / ص ٣٢١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب السنة، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، برقم (٤٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٣٦٩).



ماهية القلب وأهميته

وَخَلِّصِ القلبَ مِنَ التَّغيُّرِ عُضوُ مشاعرٍ كما الصنوبرِ

شرع الناظمُ بعد المقدمة في الإشارة إلىٰ تعريف القلب في اللغة والاصطلاح، فجاء الشطر الأول كوصية بالحفاظ علىٰ القلب من التقلُّب والتغيُّر، وهي من المقاصد العظيمة في باب القلوب، ولذلك أكثرَ النبيُّ ﷺ سؤالَ ربِّه ثباتَ القلب، «كَانَ أَكْثَرُ دُعَائِهِ يَا مُقَلِّبَ الْقُلُوبِ ثَبِّتْ قَلْبِي عَلَىٰ دِينِكَ»[١]، والقصدُ من هذه الوصية الإشارةُ إلىٰ المعنىٰ اللغويِّ للقلب الذي يدور بين أمرين: وهما خالصُ الشيء، وردُّ الشيء من جهةٍ إلىٰ أخرىٰ. قال ابن فارس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القاف واللام أصلان صحيحان: أحدهما يدلُّ علىٰ خالصِ شيءٍ وشريفه، والآخرُ علىٰ رَدِّ شيءٍ من جهةٍ إلىٰ جهة»[٢]. وقال ابنُ منظور رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلبُ: تحويلُ الشيء عَنْ وَجْهِهِ»[٣]. ويُطلق علىٰ القلب أيضًا: الصدرُ[٤]، والفؤادُ، والرُّوعُ[٥]، ويُجمعُ علىٰ قلوب.

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب، برقم (٣٥٢٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٠٩١).
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٨٥٧)، (ق ل ب).
(٣) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (م ١١ / ص ٢٦٩)، (ق ل ب).
(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (م ١ / ص ١٨٩)
(٥) ينظر: الصحاح، للجوهري، (م ١/ ص ٢٠٤)، (ق ل ب)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص ٩٣٥).

فتسمية القلب لغةً ترجعُ إلىٰ أنَّه أخلصُ وأرفعُ وأشرفُ شيء في البدن، وخالص كل شيء قلبُه، كما أنه كثيرُ التقلُّب في الخواطر والواردات، والنيَّات والإرادات، كما تتقلَّب الريشة في الفلاة مع شدَّة الرياح، وفي الحديث: «**إِنَّمَا سُمِّيَ الْقَلْبُ مِنْ تَقَلُّبِهِ، إِنَّمَا مَثَلُ الْقَلْبِ كَمَثَلِ رِيشَةٍ مُعَلَّقَةٍ فِي أَصْلِ شَجَرَةٍ، يُقَلِّبُهَا الرِّيحُ ظَهْرًا لِبَطْنٍ**»[1]، وقد أشار بعضهم إلىٰ هذا المعنىٰ بقوله:

ما سُمِّيَ القلبُ إلَّا مِن تقلُّبِهِ ... فاحذَرْ علىٰ القلبِ مِن قَلْبٍ وتَحْويلِ[2]

والشطر الثاني من البيت إشارةٌ إلىٰ المعنىٰ الاصطلاحي الذي يدور أيضا علىٰ معنيين: أحدهما الجانبُ الحسيُّ، وهو العضو اللحمي الصنوبري الشكل، المودَع في الجانب الأيسر من الصدر، وهو المضغة التي تضخ الدم في الجسم، والثاني الجانب المعنوي المرتبِط بالعواطف والمشاعر والإدراك. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لفظُ القلب قد يرادُ به المضغةُ الصنوبرية الشكل التي في الجانب الأيسر من البدن، وقد يراد بالقلب باطنُ الإنسان مطلقًا؛ فإنَّ قلبَ الشيء باطنُه»[3]. وقال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ويطلقُ القلبُ علىٰ معنيين:

أحدهما: أمرٌ حسيٌّ، وهو العضو اللحميُّ الصنوبريُّ الشكل، المودَع في الجانب الأيسر من الصدر، وفي باطنه تجويفٌ، وفي التجويف دمٌ أسود، وهو منبعُ الروح.

والثاني: أمرٌ معنويٌّ: وهو لطيفةٌ ربانيةٌ رحمانيةٌ رُوحانيةٌ، لها بهذا العضو

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، أول مسند الكوفيين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، برقم (١٩٩٠٧)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٣٦٥).
(٢) ينظر: أحكام القرآن، للقرطبي، (م ١ / ص ١٨٧).
(٣) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ٩ / ص ٣٠٣).

تعلُّق واختصاص، وتلك اللطيفةُ هي حقيقةُ الإنسان»[١].

وقد نَجِدُ الدلالةَ على المعاني الاصطلاحية في حديثِ النعمانِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»**[٢].

(١) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، (ص ٤١٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، برقم (٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب البيوع، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، برقم (١٥٩٩).

وَحَلِّهِ بالخيرِ والفَوائِدِ	لتُبصرَ النَّجاةَ في الشّدائِدِ
وَهْوَ محلٌّ للرُّقِيِّ والظَّفَرْ	نَهْجُ الصلاحِ فيه مَكْمَنُ الدُّرَرْ
وَهْوَ أجلُّ ما إليه ينصرفْ	جهدُ المريدِ للفَلاحِ والشَّرَفْ

ولما كانت «معرفةُ القلب وصفاتُه أصلَ الدين، وأساسَ طريقِ السالكين»[1] شَرَعَ الناظمُ بعد بيانِ ماهيةِ القلب وحقيقتِه في تَجْلِية أهمية القلب وضرورةِ العناية به، وعمارتِه بالأعمال القلبية، وما ينتجُ عنه من ثمارٍ عظيمةٍ في الدنيا والآخرة، فجاءت التوصيةُ في البيت الأول بتزيينِ القلب بأعمال الخير وصالحِ الفوائد التي تعودُ علىٰ المرء بأعظمِ العوائد في أوقات الشدائد، فالقلبُ العامرُ بالإيمان والعبوديات سببٌ لنجاةِ العبد من كُرَبِ يومِ القيامة؛ قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، كما أنه يُنَجِّي من شدائدِ الدنيا، وهذا ظاهرٌ في قصَّة أصحاب الغار الذين انطبقت عليهم الصخرةُ، وكيف نجَّاهم الله من الكربِ لما دَعَوا ربَّهم بخالصِ أعمالهم، وكانت عبارتُهم جميعًا: «**اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ**»[2].

وجاء في الشطر الأول من البيت الثاني بيانُ العنصر الثاني في أهميةِ القلوب؛ وهو أنَّ القلوب هي التي يَحصُل بها التفاوتُ بين الناس والرقي في الدرجات، ولَرُبَّما وقف الرجلُ بجانب صاحبه في صفِّ الصلاة وبينهما من التفاوت

---

(١) ينظر: منهاج القاصدين، لابن قدامة، (ص ١٩٣).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، برقم (٢٢٧٢).

العظيم لِما قام في القلوب. قال حسان بن عطية رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ الرجلين لَيكونان في الصلاة الواحدة وإنَّ ما بينهما في الفضل كما بين السماءِ والأرض، وذلك أنَّ أحدَهما مقبِلٌ علىٰ الله عَزَّوَجَلَّ والآخَرُ ساهٍ غافلٌ»[1]، بل قد يرتقي ويدرك درجاتِ العامل وهو في بيته قاعدٌ؛ لِما قام في قلبه واحتفَّ به من الأعذار، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَعَ مِنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ، فَدَنَا مِنَ الْمَدِينَةِ، فَقَالَ: «**إِنَّ بِالْمَدِينَةِ أَقْوَامًا، مَا سِرْتُمْ مَسِيرًا، وَلَا قَطَعْتُمْ وَادِيًا إِلَّا كَانُوا مَعَكُمْ**»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ؟ قَالَ: «**وَهُمْ بِالْمَدِينَةِ، حَبَسَهُمُ الْعُذْرُ**»[2]. ومن ذلك قولُ أبي بكر بن عياش رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَا سَبَقَهُمْ أَبُو بَكْرٍ بِكَثْرَةِ صَلَاةٍ وَلَا صِيَامٍ، وَلَكِنْ بِشَيْءٍ وَقَرَ فِي قَلْبِهِ»[3]. ومن هذا المعنىٰ قولُ أبي الدرداء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «ومثقال ذرَّة من بِرِّ صاحبِ تقوىٰ ويقينٍ أعظمُ وأفضلُ وأرجحُ من أمثالِ الجبال من عبادة المغترِّين»[4].

ومن معالم الأهمية في الشطر نفسه أنَّ العنايةَ بالقلب سببٌ للظَفَر والفوز في الدارين، ومن أعظم الظَفَر الفوز بالجنة، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣١ - ٣٣]. ومن الظفر الفوز بجنة الدنيا! قال بعضُ السلف: «مساكينُ أهل الدنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيبَ ما فيها»، قالوا: وما أطيبُ ما فيها؟ قال: «محبَّةُ الله، والأُنس به، والشوق إلىٰ لقائه، والإقبالُ عليه، والإعراضُ عما سواه». وقال ابن تيمية

---

(١) ينظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (م ١ / ص ١٣١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب، برقم (٤٤٢٣).
(٣) ينظر: غاية النهاية، لابن الجزري، (م ١ / ص ٣٢٧)، ولا أصل له مرفوعًا، كما بين العراقي في الإحياء، (م ١/ ص ٣٠)، والألباني في السلسلة الضعيفة، (م ٢ / ص٣٧٨).
(٤) ينظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي، (م ١ / ص ٦٣٠).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ في الدنيا جنَّةً مَنْ لم يدخلها. لم يدخل جنةَ الآخِرَة»(١). وقال أيضًا: «فالقلب لا يَصلح ولا يُفلح، ولا يَلتذُّ ولا يُسَرُّ، ولا يَطيب ولا يَسكُن، ولا يَطمئنُّ؛ إلا بعبادة ربِّه، وحبِّه، والإنابةِ إليه»(٢)، وقريبٌ منه قولُ تلميذه ابنِ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ففي القلب شعثٌ لا يلمُّهُ إلا الإقبالُ علىٰ الله، وفيه وحشةٌ لا يُزيلُها إلا الأنسُ بالله، وفيه حزنٌ لا يُذهبه إلا السرورُ بمعرفة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»(٣). والمقصود بجنةِ الدنيا عبودياتُ القلوب، فهي لذةُ الدنيا وسرورُها ونعيمُها.

وفي الشطر الثاني من هذا البيت إشارةٌ إلىٰ أنَّ حقيقةَ الصلاح المورِّث للدُّرَرِ هو صلاحُ القلوب، فمَن وطَّن قلبه علىٰ نهج الصلاح فلْيُبشِر، ولذلك كان محلَّ نظر الربّ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لا يَنْظُرُ إِلَىٰ صُوَرِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ، وَلَكِنْ يَنْظُرُ إِلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَأَعْمَالِكُمْ**»(٤).

قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «داوِ قلبَك؛ فإنَّ حاجة الله إلىٰ عباده صلاحُ قلوبهم»(٥) قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يعني: أنَّ مرادَه منهم ومطلوبَه: صلاحُ قلوبهم، فلا صلاحَ للقلوب حتىٰ تستقرَّ فيها معرفةُ الله وعظمتُه ومحبتُه، وخشيتُه ومهابتُه ورجاؤه، والتوكلُ عليه، وتمتلئَ من ذلك؛ وهذا هو حقيقة التوحيد»(٦).

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٥٢).
(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ١٩٤).
(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٣ / ص ١٦٤).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره، برقم (٢٥٦٤).
(٥) ينظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم، (م ٢ / ص ١٥٤).
(٦) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ١٤٧).

وفي البيت الثالث حثٌّ وتأكيدٌ للعناية بالقلب، وبيانُ أنَّ أجلَّ ما يعتني به طالبُ الشرف والرفعة والفلاح في الدنيا والآخرة هو العنايةُ بالقلب وأعماله، فرعايةُ المرء لقلبه سببُ الفلاح، وقد قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن تزكية النفس: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩]. وأعظم صور التزكية العنايةُ بأعمال القلوب، وفي صدد ذكرِ أعمال المفلِحين من سورة (المؤمنون) جاء أولُ عملٍ لهم من العبادات القلبية، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۝ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، ثم إنَّ حقيقةَ الهجرة إلىٰ الله هجرةُ القلوب، قال يحيىٰ بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مفاوزُ الدنيا تُقطَع بالأقدام، ومفاوز الآخرة تُقطَع بالقلوب»[(١)].

ومَنْ تأمَّل عظيمَ عناية السلف بأعمال القلوب أدركَ هذا الملْحَظَ، وما ذلك إلا لأنَّه من صميم الإيمان، والفَطِن هو الذي يتعاهَدُ القلبَ ووظائفَه، «**إِنَّ الْإِيمَانَ لَيَخْلَقُ فِي جَوْفِ أَحَدِكُمْ كَمَا يَخْلَقُ الثَّوْبُ الْخَلَقُ، فَاسْأَلُوا اللهَ أَنْ يُجَدِّدَ الْإِيمَانَ فِي قُلُوبِكُمْ**»[(٢)]، ومن وصايا عبدِ الله بنِ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ لأصحابه: «كُونُوا يَنَابِيعَ الْعِلْمِ، مَصَابِيحَ اللَّيْلِ، أَحْلَاسَ الْبُيُوتِ، جُدُدَ الْقُلُوبِ، خُلْقَانَ الثِّيَابِ، تُعْرَفُونَ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ، وَتَخْفُونَ عَلَىٰ أَهْلِ الْأَرْضِ»[(٣)]. وفي الحديث والأثر الدعوةُ لتجديد القلب وتعاهُدِه، قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فهذه كلماتٌ مختصراتٌ في أعمال القلوب التي تُسمَّىٰ المقاماتُ والأحوالُ وهي من أصولِ الإيمان، وقواعدِ الدين»[(٤)].

---

(١) ينظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي، (م ٢ / ص٢٩٤).
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، برقم (٨٤)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٥٩٠).
(٣) ينظر: التبصرة، لابن الجوزي، (م ٢ / ص ٢٨٨).
(٤) ينظر التحفة العراقية، لابن تيمية، (ص ١٣).

ومن جميل ما يُذكر في باب العناية بالقلب ما قاله أبو حفص النيسابوري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حَرَستُ قلبي عشرين سنةً، ثم حرسني قلبي عشرين سنةً، ثم وَرَدَت حالةٌ صِرنا فيها محروسين جميعًا»[1]؛ فمن حرس قلبَه، واعتنىٰ به في الحال؛ وجدَ ثمرةَ ذلك في المآل.

📖📖📖

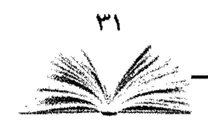
(١) ينظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي، (م ٤ / ص ١٢٠).

تفاضل أعمال القلوب وتلازمها وعلاقتها بأعمال الجوارح

إيمانُنا فالنُّطقُ باللسانِ	عقدُ الفؤادِ عملُ الأركانِ
فالقلبُ أصلٌ: والجوارحُ تبَعْ	مَنِ اعتنَىٰ بالأصلِ والفرعِ ارتَفَعْ
تفاضلُ الأعمالِ أيضًا حاصلُ	تلازمٌ لا يَخْدَعَنْكَ الصَّائلُ

يَذكر الناظمُ في هذه الأبيات جملةً من المسائل المهمة المتعلِّقة بأعمال القلوب، وبدأ البيتَ الأولَ بذكر تعريف الإيمان عند العلماء المحقِّقين الذي يشملُ قولَ اللسان، واعتقادَ القلب من قولٍ وعمل، وعملَ الجوارح، فالإيمان مكوَّن من هذه الأجزاءِ المهمة التي منها قولُ القلب وعملُه الذي يُطلَق عليه اعتقادُ القلب. وقد دلَّ علىٰ هذه المعاني الكتابُ والسنةُ، وانعقد عليها إجماعُ سلفِ الأمة، فمِن الأدلة علىٰ أنَّ الإيمانَ قولٌ بالقلب وعملٌ به؛ قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: ٧]، ومن الأدلة علىٰ أنَّ الإيمان قولٌ باللسان قولُه تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[العنكبوت: ٤٦]، ومن الأدلة علىٰ أنَّ الإيمانَ عملُ الجوارح قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾[البقرة: ١٤٣]، ومعنىٰ إيمانكم في الآية أي صلاتكم كما فسَّرها العلماء[1]، ودليلُ الجميع من السنة قولُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ:**

(١) ينظر: صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب الصلاة من الإيمان، (ص ١٢).



لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَىٰ عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[١].

وتفصيل ذلك أنَّ "لا إله إلا الله": قول اللسان، وإماطة الأذىٰ: عملُ الجوارح، والحياءُ عملُ القلب، وقد نقل عددٌ من العلماء الاتفاقَ عن الصحابة والتابعين، ومَن بعدهم مِن العلماء المحقِّقين. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقد ذكَرْنا عن الشافعي ما ذكره مِن الإجماع علىٰ ذلك قوله في الأم: وكان الإجماعُ من الصحابة والتابعين ومَنْ بَعْدَهم، ومَنْ أدركناهم يقولون: إنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ[٢] ونية»[٣]. وقال البغوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتفقت الصحابةُ والتابعون، فمَن بَعْدَهم مِنْ علماء السنة علىٰ أنَّ الأعمال مِنْ الإيمان ... وقالوا: إنَّ الإيمان قولٌ وعملٌ وعقيدةٌ، يزيد بالطاعة، ويَنقُص بالمعصية»[٤]. وقال ابنُ كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالإيمانُ الشرعيُّ المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولًا وعملًا، هكذا ذهب إليه أكثرُ الأئمة، بل حَكَاه الشافعيُّ، وأحمدُ بنُ حنبلَ، وأبو عبيدةَ، وغيرُ واحدٍ إجماعًا: أنَّ الإيمان قولٌ وعمل، يزيد وينقص، وقد ورد فيه آياتٌ كثيرةٌ وأحاديث»[٥]. فقول القلبِ هو اعترافُه وتصديقُه وإيقانُه وإقرارُه، وعملُ القلب هو انقيادُه لِما صدَّق به، ونيتُه، وإخلاصُه، ولوازمُه؛ كلُّ ذلك مِنِ اعتقاد القلب الذي يمثِّل شطرَ الإيمان الباطن. قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإيمان له ظاهرٌ وباطنٌ، وظاهرُه قولُ اللسان وعملُ الجوارح،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، برقم (٩)، ومسلم في صحيحه واللفظ له، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٣٥).

(٢) وقد شرح ابن تيمية القول والعمل بقوله: «**أجمع السلف أن الإيمان قول وعمل، يزيد وينقص، ومعنىٰ ذلك: أنه قول القلب، وعمل القلب، ثم قول اللسان، وعمل الجوارح**». ينظر: مجموع الفتاوىٰ، (م ٧ / ص ٦٧٢).

(٣) ينظر: الإيمان، لابن تيمية، (ص ١٩٧).

(٤) ينظر: شرح السنة، للبغوي، (م ١ / ص ٣٨).

(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ١ / ص ٦٧).

وباطنُـه تصديـقُ القلـب وانقيـادُه ومحبتُـه»[١].

وقـد تنوَّعـت عبـاراتُ السـلف في تعريـف الإيمـان ولكنَّهـا لا تختلـف في الحقيقـة، وإلـىٰ هـذا أشـار ابـنُ تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقولـه: «ومِـن هـذا البـاب أقـوالُ السـلف، وأئمةِ السنة في تفسير الإيمـان، فتـارةً يقولـون: هـو قـولٌ وعمـل، وتـارةً يقولـون: هـو قـولٌ وعمـلٌ ونيـةٌ، وتـارةً يقولـون: قـولٌ وعمـلٌ ونيـةٌ واتِّبـاعُ سـنةٍ، وتـارة يقولـون: قـولٌ باللسـان، واعتقـادٌ بالقلـب، وعمـلٌ بالجـوارح، وكلُّ هـذا صحيـح»[٢].

ثـم في البيـت الثـاني انتقـل النـاظـم لتقريـر أمريـن مهميـن؛ الأول في بيـان العَلاقـة بيـن أعمـال القلـوب وأعمـال الجـوارح، ووجـودِ الترابـط بيـن أعمـال الظاهـر والباطـن، فمـا كان في البـاطـن ينعكـس في الظاهـر، قـال الشـافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا ثَبَـتَ الأصـلُ في القلـب، أخبر اللسـانُ عـن الفـروع»[٣]، وأعمـالُ الجـوارح تَبَـعٌ لأعمـالِ القلـوب، بـل إنَّ أعمـالَ الجـوارح بدونهـا إمـا عديـمُ المنفعـة وإمّـا قليلُهـا، كمـا أنَّ أعمـالَ القلـوب أعظـمُ، والعنايـةَ بهـا مقدَمـةٌ علـىٰ أعمـال الجـوارح.

يقـول ابـن تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فأصـل الإيمـان في القلـب، وهـو قـولُ القلـب وعملُـه، وهـو إقـرارٌ بالتصديـقِ والحـبِّ والانقيـاد، ومـا كان في القلـب فـلا بـدَّ أنْ يظهـر موجَبُـه ومقتضـاه علـىٰ الجـوارح، وإذا لـم يعمـل بموجَبِـه ومقتضـاه دلَّ علـىٰ عدمـه أو ضَعفـه»[٤]. وقـال أيضًـا: «والدِّيـن القائـم بالقلـب مـن الإيمـان

---

(١) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٢٨).
(٢) ينظر: الإيمان، لابن تيمية، (ص ١٦٢).
(٣) ينظر: حلية الأولياء، لأبي نعيم، (م ٩ / ص ١٢٠).
(٤) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ٧ / ص ٦٤٤).



علمًا وحالًا هو الأصل، والأعمال الظاهرة هي الفروع»[١]. وقال أيضًا: «إنَّ أصلَ الدين في الحقيقة هو الأمور الباطنة من العلوم والأعمال، وأنَّ الأعمال الظاهرة لا تنفعُ بدونها»[٢]. ويقول تلميذُه ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن أعمال القلوب: «هي الأصلُ المرادُ المقصود، وأعمال الجوارح تَبَعٌ ومُكمِّلة ومتمِّمة»[٣]. وقال أيضًا: «فمعرفةُ أحكام القلوب أهمُّ من معرفة أحكام الجوارح؛ إذْ هي أصلُها، وأحكام الجوارح متفرِّعة عليها»[٤]. وقال أيضًا: «ومَن تأمَّل الشريعةَ في مصادرها ومواردها، عَلِمَ ارتباطَ أعمالِ الجوارح بأعمالِ القلوب، وأنها لا تنفع بدونها، وأنَّ أعمالَ القلوب أفرضُ على العبد من أعمال الجوارح»[٥].

ومِن أظهرِ الأدلةِ في بيانِ العلاقةِ بين أعمال القلوب وأعمال الجوارح حديثُ النعمانِ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي مضى معنا: «**أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ**»[٦]. قال ابنُ رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ فيه إشارةً إلى أنَّ صلاحَ حركاتِ العبدِ بجوارحه، واجتنابِه للمحرَّمات، واتقائه للشُبهات بحسب صلاحِ حركة قلبه، فإنْ كان قلبه سليماً ليس فيه إلا محبةُ الله، ومحبةُ ما يحبه الله، وخشيةُ الله وخشيته الوقوعَ فيما يكرهه؛ صَلَحَت حركاتُ الجوارح كلُّها، ونشأ عن ذلك اجتنابُ المحرمات كلِّها، وتوقٍ للشبهات حَذَراً من الوقوع في المحرَّمات، وإنْ كان القلب فاسداً قد استولى عليه اتِّباعُ هواه، وطلبُ ما يحبه ولو كرهه الله؛ فَسَدَت حركاتُ

(١) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠/ ص ٣٥٥).
(٢) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ١٥).
(٣) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣/ ص ١١٤٠).
(٤) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٨٧).
(٥) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣/ ص ١١٤٦).
(٦) سبق تخريجه.

الجوارح كلُّها، وانبعثت إلىٰ كل المعاصي والمشتبَهات بحسب اتباع الهوىٰ هوىٰ القلب»[١].

بل إنَّ أعمالَ الجوارح تتفاوت بتفاوتِ ما يقوم في القلوب من أعمال. قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ تأصيلًا لهذا الأمر: «الأعمالُ تتفاضلُ بتفاضُلِ ما في القلوب من الإيمانِ، والمحبةِ، والتعظيمِ، والإجلالِ، وقَصْدِ وجهِ المعبود دون شيء من الحظوظ سواه»[٢].

وفي الشطر الثاني من البيت أشار الناظمُ إلىٰ مسألةٍ دفعًا للتوهُّم، وهي أنَّ أعمال القلوب وإنْ كانت أعظمَ وأشرفَ من أعمال الجوارح فلا يعني هذا بحالٍ أنْ يُهمل المرءُ أعمالَ الجوارح، بل بلوغُ الرتب العَلِيَّة يكون بالجمع بين الأصل والفرع، والناس في هذا الباب علىٰ تفاوُتٍ عظيم.

فقِسم من الناس اعتنىٰ بعبوديات القلب، وأهملَ عبودياتِ الجوارح التي هي علامةُ عبوديات القلب، وقِسم آخَرُ اعتنىٰ بعبوديات الجوارحِ، وأهمل عبودياتِ القلب، حتىٰ قسىٰ القلبُ وَفَسَدَ، وقسم توسَّطوا وجمعوا بين العبوديتين. وأشار ابنُ القيم لهذه الأقسامِ في كلامٍ بديعٍ حيث قال: «والطائفتان متقابلتان أعظمَ تقابل، هؤلاء لا التفاتَ لهم إلىٰ عبودية جوارحِهم، ففسدت عبوديةُ قلوبِهم، وأولئك لا التفاتَ لهم إلىٰ عبوديةِ قلوبهم، ففسدت عبوديةُ جوارحِهم، والمؤمنون العارفون بالله وبأمرِه قاموا له بحقيقةِ العبوديةِ ظاهراً وباطناً، وقدَّموا قلوبَهم في الخدمة، وجعلوا الأعضاءَ تَبَعًا لها، فأقاموا المَلِكَ وجنودَه في خدمةِ المعبود، وهذا هو حقيقةُ العبودية»[٣].

---

(١) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ١٤٤).
(٢) ينظر: المنار المنيف، لابن القيم، (ص ٣٣).
(٣) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣/ ص ١١٤٧).



وفي البيت الثالث تَطَرَّق الناظمُ إلىٰ مسألتين: الأولىٰ حولَ تفاضُلِ أعمالِ القلوبِ، قوةً وضعفًا، زيادةً ونقصًا، بل العملِ نفسه قد يتفاوت بين الحينِ والآخَرِ في قلبِ الإنسان، فالناسُ يتفاضلون في المحبةِ والخشيةِ واليقينِ وغيرِ ذلك من أعمالِ القلوب، فهم في ذلك درجاتٌ ومنازلُ، والمسألةُ تَبَعٌ لمسألة زيادة الإيمان ونُقصَانه، والأدلَّة في هذا البابِ معروفةٌ، لكن حسبي الإشارةُ إلىٰ ثلاثةِ أدلةٍ لها صلةٌ قويةٌ بموضوعنا، الأول قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في زيادة الخشوع: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا ﴾[الإسراء: ١٠٩]، والخشوع من أجلِّ أعمال القلوب، وما يَقْبَل الزيادةَ يعتريه النقصُ، وهذا دليلُ التفاضل. قال الطبري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أي: ويزيدهم ما في القرآن من المواعظِ والعبرِ خشوعًا، يعني: خضوعًا لأمرِ الله وطاعتِه، واستكانةً له»[1]. والثاني قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن طلبِ نبيِّه إبراهيمَ عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾[البقرة: ٢٦٠]، والمقصود بطمأنينة القلب هنا زيادةُ اليقين كما فسَّره بعضُ السلف، قال سعيد بن جبير: «لِيزدادَ يقيني»[2]. والثالث قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿ ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا ۖ فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾[فاطر: ٣٢]، وفي الآية تقسيمُ الناس إلىٰ ثلاثِ درجاتٍ في المنازل، ولا شكَ أنَّ أعمالَ القلوب من صميم هذه الدرجات[3].

---

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري، (م ١٥ / ص ١٢١).
(٢) ينظر: السنة، لعبد الله بن أحمد، (م ١ / ص ٣٦٩)، والشريعة، للآجري، (م ٢ / ص ٦١٠)، وشرح أصول الاعتقاد، للالكائي، (م ٥ / ص ٢٤).
(٣) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١٨ / ص ١٨٤).

والخلاصة:

أنَّ النـاسَ يتفاضلـون في أعمـالِ القلـوب كمـا يتفاضلـون في أعمـالِ الجـوارح، وهـذا التفاضُـلُ حاصِـلٌ في أقـوال القلـوب مـن العلـم والمعرفـة والتصديـق، وفي أعمـال القلـوب مـن الإخـلاص والمحبَّـة واليقيـنِ ونحوِهـا. قـال ابـن تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عـن أقـوال القلـوب: «نفسُ التصديـق والعلـم في القلـب يتفاضـل باعتبـار الإجمـال والتفصيـل»[١]. وقـال ابـن رجـب رَحِمَهُ ٱللَّهُ عنهـا «التصديـق القائـمُ بالقلـوب يَتَفاضـل»[٢]. وقـال ابـنُ تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ عـن أعمـال القلـوب: «أعمـالُ القلـوب مثـل: محبـةِ الله ورسـولِه، وخشـيةِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ ورجائـه، ونحـو ذلـك؛ هي كلُّهـا مـن الإيمـان كمـا دلَّ علىٰ ذلـك الكتـابُ والسـنةُ واتفـاقُ السـلف، وهـذه يتفاضـل النـاسُ فيهـا تفاضـلًا عظيمًـا»[٣]. وقـال في موضِـع آخَـر: «أحـوالُ القلـوب وأعمالُهـا مثـل محبـةِ الله ورسـولِه، وخشـيةِ الله، والتـوكُّلِ عليـه، والصـبرِ علىٰ حكمـه، والشـكرِ لـه، والإنابـةِ إليـه، وإخـلاصِ العمـل لـه، ممـا يتفاضـل النـاسُ فيهـا تفاضـلًا لا يَعـرف قـدرَه إلا اللهُ عَزَّوَجَلَّ، ومَـن أنْكَـر تفاضلَهـم في هـذا فهـو إمـا جاهـلٌ لـم يتصـوَّرْه، وإمـا معانـد»[٤].

والشـطر الثـاني مـن هـذا البيـتِ إشـارةٌ إلىٰ أنَّ الأعمـالَ القلبيـةَ في غايـةِ الترابـطِ والاتصـال والتـلازم، وبعضُهـا يتوقـف علىٰ بعـض، ويتداخـل بعضُهـا مـع الآخَـر، ويترقَّىٰ الإنسـانُ مِن بعضِهـا للآخَـر، ولذلك تجـد كلامَ العلمـاء عن ترابـطِ المحبةِ والخـوفِ والرجـاءِ ببعضهـا، ومـن اقتصـر علىٰ واحـدٍ منهـا وقـع في الشـطط،

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية (م ٧/ ص ٥٦٤).
(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (م ١ / ص ١١٣).
(٣) ينظر: الإيمان، لابن تيمية، (ص ٢٢٢).
(٤) ينظر: المصدر السابق، (ص ٣٩١).

ولذلك جمع اللهُ بينها في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧]. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمحبةُ ما لم تقترن بالخوف فإنها لا تنفع صاحبَها، بل قد تضره»(١). وقال عن الصبر والشكر: «فكلٌّ من الصبرِ والشكر داخلٌ في حقيقة الآخر، لا يمكن وجودُه إلا به»(٢)، وقال أيضًا: «صاحبُ الرضا والشكر لا يَعدَم الصبرَ في مرتبته؛ بل الصبرُ معه، وبه يتحقق الرضا والشكرُ، لا تَصوُّرَ ولا تحقُّقَ لهما دونَه، وهكذا كلُّ مقامٍ مع الذي فوقه، كالتوكلِ مع الرضا، والخوفِ والرجاءِ مع الحبِّ»(٣).

وختم الناظمُ هذا البيتَ بالحذر من الصائل، والصائل مأخوذٌ في الأصل من صَولِ البعير الذي يَقْصِد الوثوبَ علىٰ الناس أو يَعدو عليهم ويقتلهم(٤)، ثم صار يُطلَق علىٰ المعتدِي علىٰ نفس الغير أو مالِه أو عرضِه بغير حقٍّ، من إنسانٍ أو حيوانٍ. وجاءت أحكامُ دفع الصائل في كتب الفقه، والصول والاعتداء قد يكون حسِّيًّا أو معنويًّا، وقصدُ الناظم الثاني أي الحذر من المعتدِي في هذا البابِ بأقوال مخالِفةٍ للكتاب والسنة، فاحذر خداعَه وتزيينَه للباطل، وقديمًا قالوا: رُبَّ قولٍ أشدُّ من صَولٍ، وسواء هذه المسائل التي أشار إليها الناظمُ هنا، أو غيرها من مسائل أعمال القلوب.

فإنك تجد من يُخْرِج أعمالَ القلوب من الإيمان فيَقْصِر الإيمانَ علىٰ

---

(١) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣/ ص ٨٥٠).
(٢) ينظر: عدة الصابرين، لابن القيم، (ص ١٩١).
(٣) ينظر: طريق الهجرتين، لابن القيم، (ص ٣٦٨).
(٤) ينظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص ١٣٢١)، والمصباح المنير، للفيومي، (ص ١٣٤)، (ص و ل).

التصديق والمعرفة فحسب أو أقوالِ اللسان، أو ينفي التأثيرَ المتبادَلَ بين أعمالِ القلوب وأعمالِ الجوارح، أو يُنكِر التفاضلَ بين أعمالِ القلوب بالزيادة والنُقصان، أو يُحدِث أعمالًا للقلوب لا دليلَ عليها، فكلُّ ذلك مما لا مستَنَدَ له من الدليل، بل هو مصادِمٌ للدليل يُحَذَّر منه ويُتَّقىٰ.



أقسام القلوب

ثم القلوبُ فسليمٌ من شُبَهْ	ومن ذُنوبِ عند ذي عقل نَبَهْ
وعكسُه المَيِّتُ لا يُقَادُ	بينهما العليلُ قدْ يُقادُ

يَذكر الناظم في هذين البيتين أقسامَ القلوب باعتبار أحوالها وصفاتها:

فالقسم الأول من القلوب: القلبُ السليمُ أو القلب الحيُّ، وقد ورد ذكرُ القلب السليم مرتين في كتاب الله، في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾ [الصافات: ٨٣، ٨٤]، وحقيقة القلب السليم هو السالمُ من الشبهات والشهوات، وصاحبُ العقل النبيهِ هو الذي يحرص علىٰ سلامة قلبه من الشُبَه والرِيَب والشكوك، ويحفظه من الذنوب وعلىٰ رأسها الشركُ[1]؛ حتىٰ يتحققَ له الفوزُ يوم القيامة، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وقد اختلفت عباراتُ الناس في معنىٰ القلبِ السليم، والأمرُ الجامع لذلك: أنه الذي قد سَلِمَ من كل شهوة تُخَالِفُ أمرَ الله ونهيَه، ومن كل شبهة تعارِضُ خبرَه فسلِم من عبوديَّة ما سواه، وسلِم من تحكيم غير رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسلم في محبةِ الله مع تحكيمِه لرسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وفي خوفِه ورجائه والتوكلِ عليه، والإنابةِ إليه، والذلِّ له، وإيثارِ مرضاتِه في كلِ حالٍ، والتباعدِ من سخطِه بكلِّ طريق، وهذا هو حقيقةُ العبودية التي لا

(١) ينظر: معالم التنزيل، للبغوي، (م ٣ / ص ٣٩٠)، وتفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٤ / ص ٤٥٢)، وتيسير الكريم الرحمن، للسعدي، (ص ٥٤٢).

تَصْلُح إلا لله وحدَه، فالقلب السليم: هو الذي سَلِم مِن أنْ يكون لغير الله فيه شركٌ بوجهٍ ما، بل قد خلُصَت عبوديتُه لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: إرادةً ومحبةً وتوكلًا وإنابةً وإخباتًا وخشيةً ورجاءً، وخلص عملُه لله، فإنْ أحبَّ أحبَّ في الله، وإنْ أبغض أبغض في الله، وإن أعطىٰ أعطىٰ لله، وإن منع منع لله، ولا يكفيه هذا حتىٰ يسلَمَ من الانقياد والتحكيم لكلِّ مَنْ عدا رسوله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيَعْقِد قلبَه معه عَقْدًا محكَمًا علىٰ الائتمام والاقتداء به وحدَه دونَ كلِّ أحدٍ في الأقوال والأعمال»[(١)].

والقسم الثاني من أقسام القلوب: القلبُ الميت، وهو الذي لا يقبل الحقَ ولا ينقاد له، وهو قلبُ الكافرِ والمنافقِ. وقد أشار اللهُ عَزَّوَجَلَّ إلىٰ موتِ القلوب في عدةِ آياتٍ من كتابه، كقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ [الأنعام: ١٢٢]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [يس: ٧٠]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَا أَنتَ بِمُسْمِعٍ مَّن فِي الْقُبُورِ﴾ [فاطر: ٢٢]، فهذه الآياتُ وصفٌ لقلوب الكفار الميِّتةِ. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فوصفُ الكافر بأنه ميتٌ، أو بمنزلةِ أصحابِ القبور، وذلك أنَّ القلبَ الحيَّ هو الذي يَعرِف الحقَّ ويقبله ويُؤثِره علىٰ غيره، فإذا مات القلبُ لم يبقَ فيه إحساسٌ، ولا تمييزٌ بين الحق والباطل، ولا إرادةٌ للحقِّ وكراهيةٌ للباطل، بمنزلةِ الجسد الميت الذي لا يُحسُّ بلذَّةِ الطعامِ والشرابِ، وألمِ فقدِهما»[(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف القلب الميت، وهو ضدُ الحيِّ في صفاته: «القلب الميت الذي لا حياةَ به، فهو لا يعرف ربَّه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقفٌ مع شهواتِه ولذاتِه، ولو كان فيها سخطُ ربِّه وغضبه،

(١) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ١٢).
(٢) ينظر: شفاء العليل، لابن القيم، (م ١ / ص ٢٧٠)

فهو لا يبالي إذا فاز بشهوته وحظِّه، رَضِيَ ربُّه أم سَخِط، فهو متعبِّدٌ لغير الله: حبًّا، وخوفًا، ورجاءً، ورضًا، وسخطًا، وتعظيمًا، وذلًّا، إنْ أحبَّ أحبَّ لهواه، وإن أبغض أبغض لهواه، وإن أعطىٰ أعطىٰ لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه آثرُ عنده، وأحبُّ إليه من رضا مولاه، فالهوىٰ إمامه، والشهوةُ قائدُه، والجهلُ سائقُه، والغفلةُ مركَبُه، فهو بالفكر في تحصيل أغراضه الدنيوية مغمورٌ، وبسكرة الهوىٰ وحبِّ العاجلة مخمورٌ، ينادَىٰ إلىٰ الله وإلىٰ الدار الآخرة من مكان بعيد، ولا يستجيب للناصِح، ويتَّبع كلَّ شيطانٍ مَريد، الدنيا تُسخِطه وتُرضيه، والهوىٰ يُصِمُّه عما سوىٰ الباطل ويُعميه»[١].

والقسم الثالث من أقسام القلوب: القلبُ المريض: وهو القلب الذي يكون علىٰ الطاعة والسنة تارةً، وعلىٰ المعصية والشبهة تارة أُخرىٰ، ومرضُ القلوب علىٰ نوعين: مرض النفاق، ومرض ضعف الإيمان؛ إما بالشبهات وإمَّا بالشَّهَوات والثاني هو المقصود هنا، ومِن الأول قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا﴾ [البقرة: ١٠]، أي: مرضُ الشك والنفاق[٢]، ومن الثاني قوله: ﴿فَلَا تَخْضَعْنَ بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ﴾ [الأحزاب: ٣٢]، أي: مرض شهوةِ الحرام[٣]، فالقلب المريض متردِّد بحسْب الوارد عليه، وفيه تجاذُبٌ بين الخير والشر. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فلِهذا مرضُ القلب إذا وَرَدَ عليه شبهةٌ أو شهوةٌ قوَّت مرضَه، وإن حصلت له حِكمةٌ وموعظةٌ كانت مِن أسبابِ صلاحِه وشفائِه»[٤]. وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في وصف القلب المريض: «قلبٌ له حياةٌ وبه علَّة، فله مادتان: تمدُّه هذه مرةً،

(١) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ١٣)
(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٢ / ص ٩٥).
(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ٣ / ص ٦٣٦).
(٤) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٩٤)



وهذه أخرىٰ، وهو لِمَا غلبَ عليه منهما ففيه من محبة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه: ما هو مادةُ حياته، وفيه من محبة الشهوات وإيثارِها، والحرصِ علىٰ تحصيلِها، والحسدِ، والكِبْرِ، والعُجْبِ، وحبِّ العلوِّ والفسادِ في الأرض بالرِّياسة: ما هو مادةُ هلاكِه وعطبِه، وهو ممتَحَن بين داعيين: داعٍ يدعوه إلىٰ الله ورسوله والدار الآخرة، وداعٍ يدعوه إلىٰ العاجِلة، وهو إنما يجيب أقربَهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا»[1].

ومن الإشارات إلىٰ هذا التقسيم ما جاء عن حذيفةَ بن اليمان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «القلوب أربعة: قلبٌ أجْرَدُ فيه سراجٌ يزهر، فذلك قلبُ المؤمن، وقلبٌ أغلفُ، فذلك قلبُ الكافر، وقلبٌ منكوسٌ، فذلك قلبُ المنافِق، عَرَفَ ثم أنكر، وأبصر ثم عَمِيَ، وقلب تمدُّه مادتان: مادةُ إيمانٍ، ومادة نفاقٍ، وهو لِمَا غلب عليه منهما»[2]، وقلب المنافق والكافر داخلان في القلب الميت.

ومن بديع ما ذُكر في وصف القلوب الثلاثة ما حرَّره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ بقوله: «والقلوب ثلاثة:

قلبٌ خالٍ من الإيمان وجميع الخير، فذلك قلبٌ مظلمٌ، قد استراح الشيطانُ من إلقاء الوساوسِ إليه؛ لأنه قد اتخذه بيتًا ووطنًا، وتحكَّم فيه بما يريد، وتمكَّن منه غايةَ التمكن.

القلب الثاني: قلب قد استنار بنور الإيمان، وأوقد فيه مصباحه، لكنَّ عليه ظلمةَ الشهوات وعواصفَ الأهوية، فللشيطانِ هنالك إقبالٌ وإدبارٌ ومجالاتٌ

---

(١) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ١٤)
(٢) أخرجه ابن أبي شيبة، كتاب الإيمان، (ص ١٧)، وصححه الألباني موقوفًا، وشرحه ابن القيم في إغاثة اللهفان شرحًا ماتعًا، (م ١ / ص ١٨).

ومطامعُ، فالحربُ دُول وسِجال، وتختلف أحوالُ هذا الصنفِ بالقلة والكثرة، فمنهم مَن أوقات غَلَبَتِه لعدوه أكثرُ، ومنهم مَن أوقات غلبة عدوه له أكثر، ومنهم من هو تارة وتارة.

القلب الثالث: قلب محشو بالإيمان، قد استنار بنور الإيمان، وانقشعت عنه حُجُبُ الشهوات، وأقلعت عنه تلك الظلماتُ، فلِنوره في صدره إشراقٌ، ولذلك الإشراق إيقادٌ، لو دنا منه الوَسواسُ احترق به، فهو كالسماء التي حُرِسَت بالنجوم، فلو دنا منها الشيطانُ ليتخطَّاها رُجِم فاحترق»[١].

📖📖📖

(١) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (ص ٥٢).

أعمال القلوب

أعمالُها كثيرةٌ دقيقهْ وخُذْ صفاتِها علىٰ الحقيقهْ

شرع الناظم في ذكر أعمال القلوب بالإشارة إلىٰ أنَّ أعمال القلوب كثيرةٌ في الأفراد، دقيقةٌ في الأوصاف، حيث سيشير الناظِم إلىٰ حقيقة أبرزِ أعمالِ القلوب وماهيّتها بعبارةٍ مختَصَرةٍ تدلَّ علىٰ المقصود والمقصودُ بأعمال القلوب ما يتعلَّق أداؤها بالقلب دونَ بقية الجوارح، وقد أشار إليها العلماءُ في كتب الاعتقاد[١] وشُعَبِ الإيمان[٢]. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «عمل القلب: مثل حبِّ الله ورسولِه، وخشيةِ الله، وحبِّ ما يحبه الله ورسولُه، وبغضِ ما يبغضُه اللهُ ورسولُه، وإخلاصِ العمل لله وحده، وتوكلِ القلب علىٰ الله وحده، وغيرِ ذلك من أعمال القلوب التي أوجبها الله ورسوله، وجعلها من الإيمان»[٣].

---

(١) ينظر: شرح أصول اعتقاد أهل السنة، للالكائي، (م ٥ / ص ٩١١-٩٤٠)، والإبانة، لابن بطة، (م ٢ / ص ٦٥٠-٦٥٣).

(٢) مثل المنهاج في شعب الإيمان للحليمي، والجامع لشعب الإيمان للبيهقي، ومختصره للقزويني، وغيرها.

(٣) ينظر: الإيمان، لابن تيمية، (ص ١٧٦).

إفرادُك الحقَّ بحُسنِ مَقْصَدِ　　　يُعرف بالإخلاصِ والتَّجرُّدِ

بدأ الناظم بذكر أولِ الأعمال القلبية، وهو الإخلاص لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى. والعملُ من غير إخلاصٍ جسدٌ بلا روح؛ يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الإخلاص: مسكٌ مَصونٌ في مسك القلب، ينبِهُ ريحُهُ على حاملِه. العمل صورة، والإخلاص روح؛ إذا لم تُخْلِص فلا تَتْعَب، لو قطعت سائرَ المنازِل لم تكن حاجًّا إلا بشهود الموقف»[1].

والإخلاص في اللغة: هو تنقية الشيء وتصفيتُه وتهذيبُه[2].

والإخلاص اصطلاحًا: إفراد الحق سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بالقصد في الطاعة[3]، يقول سهل التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «نَظَرَ الأكياسُ في تفسير الإخلاص، فلم يجدوا غيرَ هذا: أنْ تكون حركاتُه وسكونُه في سِرِّهِ وعَلانيته لله وحده لا شريكَ له، لا يمازجه شيء: لا نفسٌ، ولا هوىً، ولا دنيا»[4]. هذا هو حقيقة الإخلاص: أنْ يكونَ اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى مرادَك في العمل دونَ مَن سواه، فتُخَلِّص العملَ من شوائب التعلقِ بالمخلوقين.

ومما يقارب الإخلاصَ في المعنى ويتداخل معه: الصدقُ، فقد يُعَبَّر أحيانًا بالصدق ويُراد به الإخلاص. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يتم الإخلاصُ إلا

---

(١) ينظر: المدهش، لابن الجوزي، (ص ٤٣٤)
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٣٢٧)، (خ ل ص)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٧/ ص ٢٦)، (خ ل ص)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص ٧٩٧)، (خ ل ص).
(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢/ ص ٩١).
(٤) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٦٤٦٨).

بالصدق، ولا الصدقُ إلا بالإخلاص»[١].

وقد ذكر العلماءُ فروقًا بينهما، منها أنَّ الإخلاصَ حِفظُ النفس من ملاحظة الخَلق، والصدقَ حفظُ النفس من ملاحظة حظِّ النفس، فالمُخلِص لا رياءَ له، والصادقُ لا إعجاب له[٢]، وقيل في الفرق: إنَّ الإخلاصَ لا يكون إلا بعد الدخول في العمل، وأما الصدقُ فيكون بالنية قبل الدخول فيه، وقيل أيضًا: الصدق هو الأصل، والإخلاص متفرِّع عنه[٣].

وللإخلاص ثمرات وفوائد عظيمة في الدنيا والآخرة، ومنها على سبيل المثال:

أولًا: الفوزُ بالجنة، والنجاةُ من النار، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لَا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا ۝٩ إِنَّا نَخَافُ مِن رَّبِّنَا يَوْمًا عَبُوسًا قَمْطَرِيرًا ۝١٠ فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُورًا ۝١١ وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ٩ - ١٢]، وقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ عَلَى النَّارِ مَنْ قَالَ: لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، يَبْتَغِي بِذَلِكَ وَجْهَ اللهِ**»[٤].

ثانيًا: قبولُ العمل، وحصولُ الأجر؛ قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتُغِيَ بِهِ وَجْهُهُ**»[٥]، وقَالَ رَسُولُ اللهِ

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٩١).
(٢) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ص ٩١).
(٣) ينظر: التعريفات، للجرجاني، (ص ١٢-١٣).
(٤) أخرجه البخاري، أبواب التهجد، باب صلاة النوافل جماعة، برقم (١١٨٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب الرخصة فِي التخلف عَنِ الجماعة بعذر، برقم (٣٣).
(٥) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب من غزا يلتمس الأجر والذكر، برقم (٣١٤٠)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٥٢).

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا**»[1].

ثالثًا: الوقايةُ من الشيطان والشهوات، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى -عن الشيطان-: ﴿فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: ٢٤]. قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وكلما حقَّق العبدُ الإخلاصَ في قولِ: لا إله إلا الله، خرج من قلبه تألُّهُ ما يهواه، وتُصرَفُ عنه المعاصي والذنوبُ»[2].

رابعًا: وقايةُ القلب من الغلِّ والغشِّ، قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ قَلْبُ مُسْلِمٍ، إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلهِ، مُنَاصَحَةُ أَئِمَّةِ الْمُسْلِمِينَ، وَلُزُومُ جَمَاعَتِهِمْ، فَإِنَّ الدَّعْوَةَ تُحِيطُ مِنْ وَرَائِهِمْ**»[3]. وقال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أي: لا يحمل الغلَّ، ولا يبقىٰ مع هذه الثلاثة، فإنها تنفي الغلَّ، والغِشّ، وهو فسادُ القلب وسخائمه؛ فالمُخلِص لله إخلاصُه يمنع غلَّ قلبه، ويُخرجه ويُزيله جملة».

خامسًا: حصولُ الرفعة والظفر، قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّكَ لَنْ تُخَلَّفَ، فَتَعْمَلَ عَمَلًا تَبْتَغِي بِهِ وَجْهَ اللهِ إِلَّا ازْدَدْتَ بِهِ دَرَجَةً وَرِفْعَةً**»[4]،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ما جاء أن الأعمال بالنية، برقم (٥٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، برقم (١٦٢٨).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٢٦٠).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب العلم عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في الحث علىٰ تبليغ السماع، برقم (٢٦٥٨)، وابن ماجه في سننه، أبواب المناسك، باب الخطبة يوم النحر، برقم (٣٠٥٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٤٠٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب مناقب الأنصار، باب قول النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «**اللهم أمض لأصحابي هجرتهم، ومرثيته لمن مات بمكة**»، برقم (٣٩٣٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الوصية، باب الوصية بالثلث، برقم (١٦٢٨).

وقال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا بِدَعْوَتِهِمْ، وَصَلَاتِهِمْ، وَإِخْلَاصِهِمْ»(١).

وسبل تحقيق الإخلاص كثيرة، من أبرزها:

أولًا: مقتُ النفس ومجاهدتها؛ قال هشام الدستوائي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «واللهِ ما أستطيع أنْ أقول: إني ذهبت يومًا قطُّ أطلب الحديثَ أريد به وجهَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»(٢). ويقول يوسف بن حسين رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاصُ، وكم أجتهد في إسقاط الرياءِ من قلبي، فكأنَّه يَنبُت علىٰ لونٍ آخرَ»(٣).

ثانيًا: الحرص علىٰ إخفاء العمل، وللسلفِ في هذا البابِ شأنٌ عجيبٌ. قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنْ كانَ الرجلُ لقد جمع القرآن، وما يشعرُ جارُه، وإنْ كان الرجل لقد فَقُه الفقهَ الكثيرَ، وما يشعرُ به الناس، وإن كان الرجل لَيُصَلِّي الصلاة الطويلة في بيته وعنده الزَّوْرُ، وما يشعرون به، ولقد أدركنا أقوامًا ما كان علىٰ الأرض من عمل يَقدرون علىٰ أنْ يعملوه في السرِّ فيكونَ علانيةً أبدًا! ولقد كان المسلمون يجتهدون في الدعاء، وما يُسمع لهم صوتٌ»(٤).

ثالثًا: الخوفُ من فتنة الشُهرة. قال إبراهيم بن أدهم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما صدق اللهَ عبدٌ أحبَّ الشهرة»(٥). وقال ابن المبارك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال لي سفيان: إياكَ والشهرةَ، فما أتيتُ أحدًا إلا ونهاني عن الشهرة»(٦).

---

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الجهاد، باب الاستنصار بالضعيف، برقم (٣١٧٨)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٣٨٨).
(٢) ينظر: تاريخ الإسلام، للذهبي، (م ٣ / ص ١٧٥).
(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٩٢).
(٤) ينظر: الزهد، لابن المبارك، (ص ٤٥).
(٥) ينظر: سير أعلام النبلاء، للذهبي، (م ٧ / ص ٣٩٣).
(٦) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٧ / ص ٢٣).

كَذاكَ ميلُ القلبِ مَعْ تعظيمِ فذلكُم محبَّةُ الكريمِ

شرع الناظم بعد منزلة الإخلاص إلىٰ أركان العبادة الثلاثة، وهي المحبةُ، والرجاء، والخوف، وهي من أجلِّ الأعمال القلبية المتلازِمة. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اعلم أنَّ محرِّكاتِ القلوب إلىٰ الله ثلاثةٌ: المحبةُ، والخوفُ، والرجاء، وأقواها المحبةُ»[١]. وقال أيضًا: «فما حُفِظت حدودُ الله ومحارمُه، ووصل الواصلون إليه بمثل خوفِه ورجائه ومحبتِه، فمتىٰ خلا القلبُ من هذه الثلاث فسد فسادًا لا يُرجىٰ صلاحُه أبدًا، ومتىٰ ضَعُف فيه شيءٌ من هذه ضعف إيمانه بحسبه»[٢]. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلب في سَيره إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بمنزلة الطائر، فالمحبةُ رأسُه، والخوفُ والرجاءُ جناحاه، فمتىٰ سَلِم الرأسُ والجناحان فالطائر جيدُ الطيران، ومتىٰ قُطع الرأسُ مات الطائر، ومتىٰ فُقِد الجناحان فهو عُرضةٌ لكل صائد وكاسر»[٣]. وقال ابن رجب: «وقد عُلِم أنَّ العبادةَ تنبني علىٰ ثلاثة أصولٍ: الخوف، والرجاء، والمحبة؛ وكلٌّ منها فرضٌ لازمٌ، والجمعُ بين الثلاثة حتمٌ واجبٌ، فلهذا كان السلف يذمُّون من تَعَبَّد بواحدٍ منها وأهمل الآخرين»[٤].

وأول هذه المنازل التي ذكرها الناظم منزلةُ المحبة، وهذه المنزلة «من أعظم واجبات الإيمان، وأكبر أصوله، وأجلِّ قواعده، بل هي أصل كل عملٍ

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١ / ص ٩٥).
(٢) ينظر: المصدر السابق، (م ١٥ / ص ٢١).
(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٥٤).
(٤) ينظر: استنشاق نسيم الأنس، لابن رجب، (ص ٦)



من أعمال الإيمان والدين»[١]، وهي «قوت القلوب، وغذاء الأرواح، وقرة العيون»[٢]. وأصل مادة «حبب» تدور على خمسة معانٍ: الصفاء والبياض، والعلوّ والظهور، واللزوم والثبات، والحفظ والإمساك، واللبّ[٣]. وهذه المعاني من لوازِم المحبة ومقتضياتها، فهي في الحقيقة «صفاءُ المودة، وهيجانُ إرادات القلب للمحبوب، وعلوُّها وظهورُها عليه، وثبوتُ إرادة القلب للمحبوب، ولزومُها لزومًا لا تفارقُه، ولإعطاء المحبِّ محبوبَه لُبَّه، وأشرفَ ما عنده، وهو قلبه، ولاجتماع عزماته وإرادته وهمومه على محبوبه»[٤].

واختلف العلماء في تحديد المحبة في الاصطلاح على أقوال كثيرة، لأنها من الألفاظ التي يَصعُب حدُّها[٥]، ويمكن تعريفُ الحبّ عمومًا بأنه «الميلُ إلى ما يوافِق المُحِبَّ»[٦]، وأما حبّ الله، وهو المقصود هنا، فيعرّف بأنه: ميلُ القلوب إليه بالتعظيم والإجلال والطاعة[٧].

وللمحبة ثمرات وفوائد، منها ما يلي:

أولًا: حصول حلاوة الإيمان في القلب؛ قال النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا،**

---

(١) ينظر: العبودية، لابن تيمية، (ص ١٢٨).
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٣ / ص ٦).
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٢٤٨)، (ح ب ب)، ومعجم تهذيب اللغة، للأزهري، (م ٤ / ص ٥)، (ح ب ب)، وتاج العروس، للزبيدي، (م ٢ / ص ٢١٢)، (ح ب ب).
(٤) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٣ / ص ١٠).
(٥) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٣ / ص ١٠)، وشرح العقيدة الطحاوية، لابن أبي العز الحنفي، (ص ١٦٥).
(٦) ينظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، (م ٢ / ص ١٤).
(٧) ينظر: جلاء الأفهام، لابن القيم، (ص ٢٠٣)، وبدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣ / ص ٨٥٢)، وروضة المحبين، لابن القيم، (ص ٢٩٥).

وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»[١].

ثانيًا: محبة الله لعبده، فالجزاء من جنس العمل، فمَن ملأ قلبَه بحبّ الله وصفاته، رُجِي له محبةُ الله له، وشاهِد ذلك أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَىٰ سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِ فَيَخْتِمُ بِـ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «**سَلُوهُ لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟**»، فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللهَ يُحِبُّهُ**»[٢].

ثالثًا: القبول في الأرض، قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا أَحَبَّ اللهُ الْعَبْدَ نَادَىٰ جِبْرِيلَ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحْبِبْهُ، فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، فَيُنَادِي جِبْرِيلُ فِي أَهْلِ السَّمَاءِ: إِنَّ اللهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأَحِبُّوهُ، فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ**»[٣].

وأما الأسباب المُوصلة إلىٰ محبة الله فقد أجمَلَها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سياق جميلٍ، حيث قال: «فصل في الأسباب الجالِبة للمحبَّة والموجِبة لها، وهي عشرة:

أحدُها: قراءةُ القرآن بالتدبُّرِ والتفهُّم لمعانيه وما أُريدَ به، كتدبُّر الكتابِ

---

(١) أخرجه البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان، برقم (١٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب ما جاء في دعاء النبي أمته إلىٰ توحيد الله، برقم (٧٣٧٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة ﴿قل هو الله أحد﴾، برقم (٨١٣).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب ذكر الملائكة، برقم (٣٢٠٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحبّ الله عبدًا حبَّبه إلىٰ عباده، برقم (٢٦٣٧).

الـذي يحفظـه العبـدُ ويشـرحه؛ ليتفهَّـم مُـرادَ صاحبـه منـه.

الثـاني: التقـرُّب إلـىٰ الله بالنوافـل بعـد الفرائـضِ، فإنهـا توصِلـه إلـىٰ درجـة المحبوبيَّـة بعـد المحبـة.

الثالـث: دوامُ ذكـره علىٰ كلِّ حـال باللسـان والقلـب والعمـل والحـال، فنصيبه مـن المحبـة علىٰ قـدر نصيبـه مـن هـذا الذكـر.

الرابـع: إيثـارُ محابِّـه علىٰ محابِّـك عنـد غلَبَـات الهـوىٰ، والتسَـنُّمُ إلـىٰ محابِّـه وإن صَعُـبَ المرتقـىٰ.

الخامـس: مطالعـة القلـب لأسـمائه وصفاتـه، ومشـاهدتُها ومعرفتُهـا، وتقلُّبـه في ريـاض هـذه المعرفـة ومباديهـا؛ فمـن عـرف الله بأسـمائه وصفاتـه وأفعالـه أحبَّـه لا محالـة.

السـادس: مشـاهدة بـرِّه وإحسـانه وآلائـه ونِعَمـه الباطنـة والظاهـرة، فإنهـا داعيـةٌ إلـىٰ محبتـه.

السـابع: وهـو مِـن أعجبهـا، انكسـارُ القلـب بكلِّيَتـه بيـن يـدي الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وليـس في التعبيـر عـن هـذا المعنـىٰ غيـر الأسـماء والعبـارات.

الثامـن: الخلـوة بـه وقـت النـزول الإلهـي لمناجاتـه، وتـلاوة كلامـه، والوقـوف بالقلـب، والتـأدُّب بـأدب العبوديـة بيـن يديـه، ثـم خَتْـمُ ذلـك بالاسـتغفار والتوبـة.

التاسـع: مجالسـةُ المحبيـن الصادقيـن، والتقـاطُ أطايـب ثمـرات كلامهـم كمـا يُنْتَقَـىٰ أطايـبُ الثمـر، ولا تتكلَّـم إلا إذا ترجَّحـتْ مصلحـةُ الكـلام، وعلمـتَ أنَّ فيـه مزيـدًا لحالـك، ومنفعـةً لغيـرك.

العاشر: مباعدةُ كلِّ سببٍ يَحْولُ بينَ القلب وبينَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ.

فمِنْ هذه الأسباب العشرة وصلَ المحبُّونَ إلىٰ منازل المحبَّة»[1].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، بتصرف يسير، (م ٣/ ص ١٧).

كذا الرَّجاءُ: ثِقَةٌ بالجُودِ	مِنَ الإلهِ خالقِ الوجودِ

يذكر الناظم في هذا البيتِ منزلةَ الرجاء، وهي من أعظم المحفِّزات، وباعثةٌ علىٰ الطاعات، والرجاءُ لغةً مأخوذ من مادة (ر ج و) التي تدل علىٰ الأمل الذي هو نقيضُ اليأس[1]، «**وقد ورد الرجاء في القرآن علىٰ ستة أوجه:**

أولها: بمعنىٰ الخوف، ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣].

والثاني: بمعنىٰ الطمع، ﴿وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ﴾ [الإسراء: ٥٧].

والثالث: بمعنىٰ توقُّع الثواب، ﴿يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ﴾ [فاطر: ٢٩].

والرابع: الرجا المقصور بمعنىٰ الطَرَف، ﴿وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا﴾ [الحاقة: ١٧].

والخامس: الرجأ المهموز، ﴿أَرْجِهْ وَأَخَاهُ﴾ [الأعراف: ١١١] أي: احبسه.

والسادس: بمعنىٰ التأخير، ﴿تُرْجِي مَنْ تَشَاءُ مِنْهُنَّ﴾ [الأحزاب: ٥١] أي: تؤخِّر»[2].

والرجاء في الاصطلاح: هو الثقة بجُود الربِّ الخالق، كما جاء في النَّظم، وقريبٌ منه في التعريف هو: الاستبشار بجودِ الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وفضله، والارتياحُ لمطالعة كرَمِه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ[3]. والرجاءُ يَقترن بالعمل والأمل، فإنْ

---

(١) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (م ١٤ / ص ٣١٠)، (ر ج و)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص ١٦٦٠)، (ر ج و)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٤٤٥)، (ر ج و).

(٢) ينظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي، بتصرف (م ٣ / ص ٥٠).

(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٣٦).

خلا من العمل دخل في حيِّز الغرور والأماني. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والفرق بينه وبين التمنِّي، أنَّ التمنِّيَ يكون مع الكسل، ولا يَسلك بصاحبه طريقَ الجدِّ والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكُّل»(١).

وقد ذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إحدىٰ عشرة فائدة للرجاء(٢)، نذكر منها:

أولًا: أنَّ الرجاء حادٍ يحدو بالعبد في سَيره إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فهو المنشِّط للطاعة، الدافعُ للعبادة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ﴾ [الزمر: ٩]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَنْ تَبُورَ ﴿٢٩﴾﴾ [فاطر: ٢٩].

ثانيًا: أنَّ الرجاء مقترنٌ بحسنِ الظن، وحسنُ الظن بالله سبيلٌ لتحقيق المأمول، كما جاء في الحديثِ القدسي، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ** جَلَّ وَعَلَا **يَقُولُ: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي، إِنْ ظَنَّ خَيْرًا فَلَهُ، وَإِنْ ظَنَّ شَرًّا فَلَهُ**»(٣).

ثالثًا: أنَّ الرجاء بريدٌ لعباداتٍ قلبيةٍ أخرىٰ مثل محبةِ الله، والشكرِ، والخوفِ، والافتقارِ، وكلَّما حصل له ما يرجوه ازداد حبًّا وشكرًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ.

ومما يوصِل العبدَ إلىٰ تحقيق هذه المنزلة التعرُّفُ علىٰ أسماء الله ومعانيها وما فيها من العبوديات، لا سيَّما الرحمنُ، الرحيمُ، الكريمُ، الرؤوفُ، فالرجاءُ

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٣٧).

(٢) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ص ٥٢).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، مسند أبي هريرة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، برقم (٩١٩٩)، وابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب حسن الظن بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ذكر البيان بأن الله جَلَّ وَعَلَا يعطي مَنْ ظنَّ ما ظن؛ إن خيرًا فخير، وإن شرًا فشر، برقم (٦٣٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٦٦٣).

«عبوديةٌ وتعلُّقٌ بالله من حيثُ اسمُه: المحسنُ البَرُّ، فذلك التعلق والتعبُّد بهذا الاسم والمعرفة بالله هو الذي أوجبَ للعبد الرجاءَ من حيث يدري، ومن حيث لا يدري؛ فقوة الرجاء علىٰ حسب قوَّة المعرفةِ بالله وأسمائه وصفاته، وغلبةِ رحمته غضبَه»[١]، ثم النظر في نِعَم الله وألطافِه عليه، وتجدُّدِها في حياته، والتأملُ في أبوابِ الثوابِ، وكيف يُضاعف الله الحسناتِ، ويعطي الكثيرَ علىٰ العمل اليسير، والنظرُ في حِلمه وجُوده وعفوِه وتجاوزِه عن المسيء، والعملُ علىٰ تعزيزِ محبةِ اللهِ في القلب، فالمحبةُ تقود للرجاء، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فعلىٰ قدر تمكُّن محبة الله عَزَّوَجَلَّ من القلب يتنامىٰ خوفُه وتعظيمُه ورجاؤُه»[٢].

📖📖📖

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٤٢).
(٢) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ص ٤٣).

والخوفُ قلْ تألُّمُ الأوَّابِ	مستحضراً مرارةَ العقابِ

يذكر الناظم في هذا البيت عبادةَ الخوف، وهي من المقامات العليَّة، والمنازلِ الرضيَّة، قال وهبُ بن منبّه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما عُبد الله بمثل الخوفِ»[1]، وقال بعضُهم: «أصلُ كلِّ خيرٍ في الدنيا والآخرةِ الخوفُ من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»[2]، وتدل مادة (خ و ف) علىٰ الذعر والفزع،[3] «وقد ورد الخوفُ في القرآن علىٰ وجوه[4] منها:

الأول: بمعنىٰ القتلِ، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الْخَوْفِ﴾ [البقرة: ١٥٥].

والثاني: بمعنىٰ الحربِ، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ [الأحزاب: ١٩].

والثالث: بمعنىٰ العلم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا﴾ [البقرة: ١٨٢].

والرابع: النقص، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّفٍ﴾ [النحل: ٤٧].

الخامس: بمعنىٰ الرعب من العذاب، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦].

والخوف في الاصطلاح: هو تألُّم القلب بسبب توقُّع العقاب والمكروه في

---

(١) ينظر: مجموع رسائل ابن رجب، (م ٤ / ص ٩٤).
(٢) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٨٤٩).
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٣٣٦)، (خ و ف)، والقاموس المحيط، للفيرزآبادي، (ص ١٠٤٦)، (خ و ف).
(٤) ينظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي، بتصرف، (م ٢ / ص ٥٧٨).

المستقبَل[١]، وهو ما أشار إليه الناظمُ. وقيل: اضطرابُ القلب وحركتهُ من تذكر المخوِّف[٢]. والخوفُ والخشيةُ لفظتان متقاربتان، إلا أنَّ الخشيةَ تكون مع تعظيمٍ وعلمٍ[٣]، وعليه فالخشيةُ أخصُّ من الخوف.

والخوف يكون محمودًا حينما يَحُول بين صاحبه وبين محارمِ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فإذا تجاوز ذلك خِيف منه اليأسُ والقنوط. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الخوف ما حجزك عن معاصي الله، فإذا زاد علىٰ ذلك فهو غيرُ محتاج إليه»[٤]. وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القدر الواجب من الخوف، ما حَمَلَ علىٰ أداء الفرائض، واجتنابِ المحارم، فإن زاد علىٰ ذلك بحيث صار باعثًا للنفوس علىٰ التَّشمير في نوافل الطاعات، والانكفاف عن دقائق المكروهات، والتبسُّطِ في فضول المباحات، كان ذلك فضلًا محمودًا، فإنْ تزايَد علىٰ ذلك بأنْ أَوْرَثَ مرضًا، أو موتًا، أو همًّا لازمًا بحيث يَقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المحبوبة لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ؛ لم يكن محمودًا»[٥].

وللخوف ثمار عديدة، نذكر منها:

أولًا: خوف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ طريق الجنة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ﴾ [الرحمن: ٤٦]. قال مجاهد رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هو الرجلُ يريد أنْ يذنب، فيذكُر مقامَ ربه، فيدعُ الذنب»[٦]. وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ

---

(١) ينظر: مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة، (ص ٦٢).
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم (م ١ / ص ٥١٢).
(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ٥٤٩)، وفيض القدير، للمناوي، (م ١ / ص ٢١٥)، والمفردات في غريب القرآن، للأصفهاني، (ص ٢٨٣)، والكليات، للكفوي، (ص ٤٢٨).
(٤) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٥١).
(٥) ينظر: التخويف من النار، لابن رجب، (ص ٣٤).
(٦) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٧٢٥).

وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى ۝ فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ [النازعات: ٤٠، ٤١].

ثانيًا: الخوف من الله في الدنيا أمانٌ في الآخرة، قال النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْوِي عَنْ رَبِّهِ جَلَّ وَعَلَا، قَالَ: «**وَعِزَّتِي لا أَجْمَعُ عَلَىٰ عَبْدِي خَوْفَيْنِ وَأَمْنَيْنِ، إِذَا خَافَنِي فِي الدُّنْيَا أَمَّنْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَإِذَا أَمِنَنِي فِي الدُّنْيَا أَخَفْتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»(١).

ثالثًا: الخائفُ من ربه في ظلِّ العرش يوم القيامة، قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَىٰ حَتَّىٰ لا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ**»(٢).

رابعًا: الخوف سائقٌ يسوق العبدَ سوقًا سريعًا إلىٰ امتثال المأمور واجتناب المحظور، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلَا إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الْجَنَّةُ**»(٣)، فمَن خاف اللهَ أسرع وشمَّر في دروب الآخرة.

---

(١) أخرجه ابن حبان في صحيحه، كتاب الرقائق، باب حسن الظن بالله تعالىٰ، ذكر البيان بأن حسن الظن الذي وصفناه يجب أن يكون مقرونًا بالخوف منه جل وعلا، برقم (٦٤٠)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٣٣٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأذان، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد، برقم (٦٦٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، برقم (١٠٣١).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٢٦٤٥)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٥٤).

خامسًا: للخائف مهابةٌ ومنزلةٌ في قلوب الخلق، فالجزاء من جنس العمل، لَمَّا خاف من الله جعل له هيبةً في قلوب الخلق، قال يحيىٰ بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علىٰ قدر حبِّك لله يحبُّك الخلقُ، وعلىٰ قدر خوفك من الله يهابك الخلق»(١).

وأما أبرز سبل تحقيق الخوف فهي علىٰ النحو الآتي:

أولًا: التعرف علىٰ الله بأسمائه وصفاته، فالعلمُ بالله يورِث الخشيةَ، ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لأنَّ مَن عرف الله خافَه، ومن لم يعرفه لم يخفْه، فخشية الله مقرونةٌ بمعرفته، وعلىٰ قدر المعرفة تكون الخشية»(٢).

ثانيًا: تدبُّرُ القرآن، لا سيما آياتِ الوعيد، والتخويف الشديد، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ شِبْتَ. قَالَ: «**شَيَّبَتْنِي هُودٌ وَالْوَاقِعَةُ وَالْمُرْسَلَاتُ وَ**﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ ۝١﴾ وَ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١﴾»(٣). قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قال العلماء: لعلَّ ذلك لِما فيهن من التخويف الفظيع، والوعيد الشديد، لاشتمالهنَّ مع قِصَرِهنَّ علىٰ حكايةِ أهوالِ الآخرةِ، وعجائبِها وفظائعِها، وأحوالِ الهالكين والمعذَّبين»(٤).

ثالثًا: سؤالُ الله الخشيةَ والرهبةَ منه، وفي المأثور: «**اللَّهُمَّ وَأَسْأَلُكَ خَشْيَتَكَ**

(١) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٩٤٨).
(٢) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، (ص ٢٢٠).
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: ومن سورة الواقعة، برقم (٣٢٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٥٥).
(٤) ينظر: فيض القدير، للمناوي، (م ٤ / ص ١٦٩).

فِي الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ»(١)، وأيضًا قوله: «اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ»(٢)، وفي الدعاء الجامع: «رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا»(٣).

ومع ذكر منزلتَي الخوف والرجاء نشير إلىٰ أنَّ المرءَ في سَيْرِه إلىٰ الله يحتاج إلىٰ المنزلتين معًا، للتلازُم بينهما؛ فكل خائفٍ راجٍ، وكل راجٍ خائفٌ، والعمل بأحدهما دون الآخر قد يؤدي للوقوع في بعض الكبائر، لأنَّ الخوفَ بلا رجاءٍ قد يوقِع في اليأس والقنوط، كما أنَّ الرجاءَ بلا خوفٍ قد يوقع في الأمن مِن مكر الله، وقد وصف الله الأنبياءَ والصالحين والعبادَ بأنهم يَجمعون بين الرغبةِ والرهبةِ والرجاءِ والخوفِ في آياتٍ كثيرة، منها قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ ۝٩٠﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقوله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿تَتَجَافَىٰ جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ [السجدة: ١٦]، وغيرُها من الآيات، وكذلك في صحيح الأحاديث، قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ يَعْلَمُ الْمُؤْمِنُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الْعُقُوبَةِ مَا طَمِعَ بِجَنَّتِهِ أَحَدٌ، وَلَوْ يَعْلَمُ الْكَافِرُ مَا عِنْدَ اللهِ مِنَ الرَّحْمَةِ مَا قَنَطَ مِنْ جَنَّتِهِ أَحَدٌ»(٤).

---

(١) أخرجه النسائي في سننه، كتاب السهو، باب نوع آخر، برقم (١٣٠٥)، وصححه الألباني في ظلال الجنة، برقم (١٢٩).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٣٥٠٢)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٢٦٨).

(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٣٥٥١)، وابن ماجه في سننه، أبواب الدعاء، باب دعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (٣٨٣٠)، وصححه الألباني في ظلال الجنة، برقم (٣٨٤).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب في سعة رحمة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وأنها سبقت غضبه، برقم (٢٧٥٥).

ومِن هنا جاءت مسألةُ التغليب بين الرجاء والخوف، هل نُغَلِّب جانبَ الرجاء أو الخوف؟، فذهب بعضُ العلماء إلىٰ تغليب جانب الرجاء مطلقًا، وبعضُهم إلىٰ تغليب جانب الخوف مطلقًا، وبعضهم ذهب إلىٰ أنْ يكون الخوفُ والرجاء سواء، ومنهم من قال: يُغَلِّب الرجاءَ في الطاعة، ويغلِّب الخوف إنْ هَمَّ بمعصية، ومنهم مَن قال: يُغَلِّب الخوفَ في وقت الصحة، والرجاء في وقت المرض، وغيرُها من الأقوال[1]. ولعلَّ الأقربَ أنَّه يختلف باختلاف الأشخاص والأحوال، والمرء يقدِّم الخوفَ أو الرجاءَ بحَسْبِ حاجته.

❑❑❑

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ٤ / ص ٥١)، ومدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٥٤)، والآداب الشرعية، لابن مفلح، (م ٢ / ص ٢٤)، والتخويف من النار، لابن رجب، (ص ٣١).

توكُّلُ أخذُكَ بالأسبابِ	معتمدًا فيه على الوهَّابِ

يَذْكُر الناظم في هذا البيت منزلةً قلبيةً عظيمةً، وهي: منزلةُ التوكُّل، وهو أصلٌ لمقامات الدِّين، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فظهر أنَّ التوكلَ أصلٌ لجميع مقامات الإيمان والإحسان، ولِجميع أعمالِ الإسلام، وأنَّ منزلتَه منها منزلةُ الجسدِ مِنَ الرأس»(١). والتوكل في اللغة: التفويضُ، والاعتمادُ علىٰ الغير، وتسليمُ الأمر له(٢).

والتوكل اصطلاحًا(٣) -كما بيَّن النَّاظمُ- هو: صدقُ اعتماد القلب علىٰ الوهَّاب في جلبِ المنافع ودفعِ المضارِّ مع الأخذ بالأسباب(٤). ويَظهر بذلك أنَّ التوكل يَنْبَني علىٰ ركنين: الأول الثقة بالله وتمام الاعتماد عليه وتفويض الأمر إليه، والثاني: هو الأخذ بالأسباب. قال سهل التستري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن طَعن في الاكتساب فقد طَعن في السنة، ومَن طعن في التوكُّل فقد طعن في الإيمان»(٥).

وأما عن ثمرات التوكل فهي كثيرة، ولعل من أبرزها ما يأتي:

أولًا: حصولُ كفاية الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للمتوكِّل، فَمَن توكَّل علىٰ الله كفاه ووقاه،

(١) ينظر: طريق الهجرتين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٥٦٢).
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (و ك ل)، (ص ١١٠٢)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١١ / ص ٧٣٤)، (و ك ل)، وتاج العروس، للزبيدي، (م ٣١/ ص ٩٦)، (و ك ل).
(٣) تنوعت عبارات العلماء في تعريف التوكل، فعرف بلازمه وثمراته وأسبابه وغيره.
(٤) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ١٢١)، وجامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ٤٣٦).
(٥) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (١٢٣١).

ويا لَها من ثمرةٍ عظيمة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣]، قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولأنه رتّب الحكمَ علىٰ الوصف المناسب له؛ فعُلِم أنَّ توكلَه هو سبب كونه حسبا له»[١].

ثانيًا: الوقاية من تسلُّط الشيطان وكيده، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [النحل: ٩٩]، وجاء في ذكر الخروج من المنزل، «**إِذَا خَرَجَ الرَّجُلُ مِنْ بَيْتِهِ فَقَالَ: بِاسْمِ اللهِ، تَوَكَّلْتُ عَلَىٰ اللهِ، لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ قَالَ: يُقَالُ حِينَئِذٍ: هُدِيتَ وَكُفِيتَ وَوُقِيتَ، فَتَتَنَحَّىٰ لَهُ الشَّيَاطِينُ، فَيَقُولُ شَيْطَانٌ آخَرُ: كَيْفَ لَكَ بِرَجُلٍ قَدْ هُدِيَ وَكُفِيَ وَوُقِيَ؟**»[٢].

ثالثًا: التوكل يورث محبةَ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ للعبد، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقد عرَفنا عظمَ ثمرات المحبة سابقًا.

رابعًا: التوكل سبيل سعة الأرزاق، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَىٰ اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرُزِقْتُمْ كَمَا يُرْزَقُ الطَّيْرُ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا**»[٣]، قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الحديث أصلٌ في التوكل، وإنه من أعظم الأسباب التي يُستجلَب بها الرزقُ»[٤].

---

(١) جامع الرسائل، لابن تيمية، (م ١ / ص ٨٨).
(٢) أخرجه أبوداود في سننه، كتاب الأدب، أبواب النوم، باب ما يقول إذا خرج من بيته، برقم (٥٠٩٥)،
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب في التوكل علىٰ الله، برقم (٢٣٤٤)، وابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب التوكل واليقين، برقم (٤١٦٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣١٠).
(٤) جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ٨١١).

خامسًا: التوكل يورث المرءَ قوةَ العزيمة، ولذلك اقترن العزم بالتوكل في قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في هذا الصدد: «ولو توكَّل العبد علىٰ الله حقَّ توكله في إزالة جبلٍ من مكانه، وكان مأمورًا بإزالته، لأزاله»(١).

ومما يعين الإنسان علىٰ تحقيق التوكل فيٰ حياته ما يأتيٰ:

أولًا: العناية بتحقيق التوحيد، وبِقدرِ هذا التحقيقِ يزدادُ التوكلُ علىٰ الله، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: ١٢٣]. قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «علىٰ قدر تجريد التوحيد تكون صحةُ التوكل، فإنَّ العبدَ متىٰ التفت إلىٰ غير الله أخذ ذلك الالتفاتُ شعبةً من شُعَبِ قلبه، فنقص من توكُّلِه علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بقدر ذهابِ تلك الشعبة»(٢).

ثانيًا: معرفة الأسماء والصفات، والتعبد لله بها، وعلىٰ قدر هذه المعرفةِ يزداد التوكلُ، والمتدبِّر للقرآن يجد اقترانَ التوكل بأسماء الله وصفاته، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٦١﴾﴾ [الأنفال: ٦١]. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فكل مَن كان بالله وصفاته أعلمَ وأعرفَ، كان توكله أصحَّ وأقوىٰ»(٣)، وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وإذا تجلَّىٰ الله عَزَّوَجَلَّ بصفات الكفاية والحسْب، والقيام بمصالح العباد، وسَوْق أرزاقِهم إليهم، ودفْعِ المصائب عنهم، ونصرِه لأوليائه وحمايتِه لهم ومعيتِه الخاصة لهم؛ انبعث من العبد قوةُ التوكل عليه،

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٨١).
(٢) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ص ١٢٠).
(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ص ١١٨).

والتفويضُ إليه، والرضا به»[1].

ثالثًا: تعزيزُ الثقة بالله، وحُسن الظن به. والثقةُ بالله مبدأُ التوكل عليه، وتفويضُ الأمر إليه. قال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ مِن توكُّل العبد أنْ يكون اللهُ هو ثقته»[2].

📖📖📖

(١) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ٩٩).
(٢) ينظر: التوكل، لابن أبي الدنيا، برقم (١٨٩).

ثم التُّقىٰ فعلُكَ ما أُمِرْتَا   كذاك أنْ تتركَ ما نُهِيتَا

انتقل الناظم في هذا البيتِ إلىٰ منزلةِ التقوىٰ، ولم يزل الأنبياءُ والصالحون يتواصون بها، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]. قال القرطبي رَحِمَهُ اللَّهُ: «الأمر بالتقوىٰ كان عامًّا لجميع الأمم»(١)، وقال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ – عن التقوىٰ –: «ما أعلم وصيةً أنفعَ من وصية الله ورسوله لمن عقلها واتبعها»(٢).

وكلمة التقوىٰ في اللغة ترجع إلىٰ مادة (و ق ي) التي تدل علىٰ دفع شيء عن شيء بغيره، يقال: وقيت الشيء أقيه، والوقاية ما يقي الشيء، والاتِّقاء اتخاذُ الوقاية، ويقال: توقَّيت الشيءَ، أي: حَذِرتُه(٣).

وأما في الاصطلاح فهو: فعلُ ما أمر الله، وتركُ ما نهىٰ اللهُ عنه(٤)، كما جاء في النَّظم، قال طلق بن حبيب رَحِمَهُ اللَّهُ: «التقوىٰ أنْ تعملَ بطاعة الله علىٰ نور من الله ترجو ثواب الله، وأنْ تترك معصيةَ الله علىٰ نور من الله تخاف عقابَ الله»(٥). وقال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «التقوىٰ: اسمٌ جامعٌ لفعل الطاعات، وتركِ المنكرات»(٦).

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (م ٥ / ص ٤٠٨).
(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٦٥٣).
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١١٠٠)، (و ق ي)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٥ / ص ٤٠٢)، (و ق ي).
(٤) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ٣ / ص ١٢٠).
(٥) ينظر: الرسالة التبوكية، لابن القيم، (ص ١٠).
(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ١ / ص ٢١٢).

والتقوى منزلة عظيمة، وثمرات جليلة، منها:

أولًا: التقوىٰ أصلُ الخير وسبيلُه، عَنْ أَبِي سَعِيدٍ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، أَوْصِنِي. قَالَ: «**عَلَيْكَ بِتَقْوَىٰ اللهِ؛ فَإِنَّهَا جِمَاعُ كُلِّ خَيْرٍ**»(١). وكتب رجل من السلف إلىٰ أخيه يوصيه: «أوصيك وأنفسَنا بالتقوىٰ؛ فإنها خيرُ زاد الآخرة والأولىٰ»(٢).

ثانيًا: التقوىٰ سببُ قبول الأعمال، وقبولُ العمل هو الأمر الذي شَغَلَ أهلَ الصلاح، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [المائدة: ٢٧]. وكتب عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ اللَّهُ إلىٰ رجل يوصيه: «أوصيك بتقوىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ الذي لا يَقبَل غيرَها، ولا يرحَم إلا أهلَها، ولا يُثيب إلا عليها، فإن الواعظين بها كثير، والعاملين بها قليل»(٣).

ثالثًا: التقوىٰ من أكثر ما يُدخِل الجنةَ، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ [النبأ: ٣١]، وفي الحديث سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «**التَّقْوَىٰ وَحُسْنُ الْخُلُقِ**»(٤).

رابعًا: التقوىٰ سبب الأرزاق، وتيسير الأمور، والخروج من المضائق، قال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا ﴿٢﴾ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير، باب الميم، من اسمه محمد، برقم (٩٤٩)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٢٨٦٩).
(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ١٦١).
(٣) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٥ / ص ٢٦٧).
(٤) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب ذكر الذنوب، برقم (٤٢٤٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٧٧).

يَحْتَسِبُ﴾ [الطلاق: ٢، ٣]، ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ [الطلاق: ٤].

خامسًا: التقوى سببُ محبة الله للعبد ومعيَّتِه وحفظِه وتأييدِه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ٧٦]، وقال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْعَبْدَ التَّقِيَّ الْغَنِيَّ الْخَفِيَّ**»[(١)]، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٤]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]. قال رجلٌ ليونسَ بن عبيد رَحِمَهُ اللَّهُ: أوصني. قال: «أوصيك بتقوى الله والإحسانِ، فإنَّ اللهَ مع الذين اتقوا والذين هم محسنون»[(٢)].

ومن سبل تحقيق التقوى:

أولًا: الدعاء، وسؤال الله التقوى، عَنْ عَبْدِ اللهِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ كَانَ يَقُولُ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الْهُدَىٰ وَالتُّقَىٰ، وَالْعَفَافَ وَالْغِنَىٰ**»[(٣)]، وفي الصحيح أيضًا: «**اللَّهُمَّ آتِ نَفْسِي تَقْوَاهَا، وَزَكِّهَا أَنْتَ خَيْرُ مَنْ زَكَّاهَا، أَنْتَ وَلِيُّهَا وَمَوْلَاهَا**»[(٤)].

ثانيًا: محاسبة النفس، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]. قال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يكونُ الرجلُ من المتقين

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٥).
(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ١٦١).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، برقم (٢٧٢١).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، برقم (٢٧٢٢).

حتىٰ يحاسب نفسَه أشدَّ من محاسبةِ شَريكه»[١].

ثالثًا: طيبُ الكسب، والحرص علىٰ الكسب الحلال، قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «طلبُ كسب الحلال من أصول الوَرَع، وأساس التقوىٰ»[٢]، وقال المباركفوري: «أكلُ الحلال رأسُ التقوىٰ كله»[٣].

(١) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٤ / ص ٨٩).
(٢) ينظر: فيض القدير، للمناوي، (م ٦ / ص ٩١).
(٣) ينظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري، بتصرف، (م ٦ / ص ١٢٠)

والورعُ التَّرْكُ لما فيه الضَّرَرْ خوفًا وإخباتًا لخالقِ البشرْ

يذكر الناظم في هذا البيت منزلةَ الورع، وهي من أجمل ثمارِ الإيمان، قال طاوس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَثَلُ الإيمان كشجرةٍ؛ فأصلها الشهادةُ، وساقها وورقها كذا، وثمرها الورعُ، ولا خيرَ في شجرةٍ لا ثمرَ لها، ولا خيرَ في إنسان لا ورعَ له»(١)، ولذلك كان ميدانًا للتعلُّم والتطبيق عند السلف، قال الضحاك رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لقد رأيتُنَا وما يتعلَّم بعضُنا من بعض إلا الورع»(٢).

والورع في اللغة: الكفُّ والانقباض والتحرُّج، يقال: تورَّع عن كذا، أي: كفَّ عنه، وتحرَّج منه(٣).

وأما في الاصطلاح: فهو تركُ ما يُخْشىٰ ضَرَرُه في الآخرة، سواءٌ كان هذا المتروك محرَّمًا أم مشتبَهًا أم فُضُولًا ربما يقود للمحرَّم، فيتركُه خوفًا من الله. قال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأما الورعُ فإنه الإمساك عمّا قد يَضر، فتدخل فيه المحرماتُ والشبهاتُ؛ لأنها قد تضر»(٤).

والفرق بين الورع والزهد: «أنَّ الزهدَ تركُ ما لا ينفع في الآخرة، والورع ترك ما يُخشىٰ ضررُه في الآخرة»(٥). ومن الضوابط النافعة في باب الزهد

(١) ينظر: السنة، لعبد الله بن أحمد، برقم (٦٣٥).
(٢) ينظر: الورع، لابن أبي الدنيا، برقم (٢٦).
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص١٠٨٨)، (و ر ع)، ولسان العرب، لابن منظور، (م٨/ ص٣٨٨)، (و ر ع).
(٤) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٦١٥).
(٥) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٧١).

والـورع مـا قالـه ابـن تيميـة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الواجبات والمستحَبَّات لا يَصلح فيها زهدٌ ولا ورع، وأمـا المحرَّمـات والمكروهـات فيصلـحُ فيهـا الزهـدُ والـورع»(١).

ومن فوائد الوَرَعِ وثمراته ما يأتي:

أولًا: بالـورع يرتقـي المـرءُ في درجـات العبوديـة العاليـة، ومراتبِهـا السـامية، قَـالَ رَسُـولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَـا أَبَـا هُرَيْـرَةَ، كُـنْ وَرِعًـا تَكُـنْ أَعْبَـدَ النَّـاسِ**»(٢)، وقـال الحسـن البصـري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أفضـلُ العبـادة: التفكُّـر، والـورع»(٣).

ثانيًـا: الاسـتبراءُ والوقايـةُ للديـن والعِـرْضِ، قَـالَ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْحَلَالُ بَيِّـنٌ، وَالْحَـرَامُ بَيِّـنٌ، وَبَيْنَهُمَـا مُشَبَّهَاتٌ، لا يَعْلَمُهَـا كَثِيـرٌ مِـنَ النَّـاسِ، فَمَـنِ اتَّقَـىٰ الْمُشَـبَّهَاتِ اسْـتَبْرَأَ لِدِينِـهِ وَعِرْضِـهِ، وَمَـنْ وَقَـعَ فِـي الشُّـبُهَاتِ كَـرَاعٍ يَرْعَـىٰ حَـوْلَ الْحِمَـىٰ يُوشِـكُ أَنْ يُوَاقِعَـهُ**»(٤).

ثالثًـا: الـوَرَعُ مِـن أخيَـرِ القُـرَبِ الدينيـة، ومـن أفضـل مـا يُتَقَـرَّب بـه إلـىٰ الله، قَـالَ رَسُـولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**فَضْـلُ الْعِلْـمِ أَحَـبُّ إِلَـيَّ مِـنْ فَضْـلِ الْعِبَـادَةِ، وَخَيْـرُ دِينِكُـمُ الْـوَرَعُ**»(٥)، وقـال يحيـىٰ بـن أبـي كثيـر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أفضـلُ العمـلِ الـورعُ»(٦).

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٦١٩).
(٢) أخرجـه ابـن ماجـه في سـننه، أبـواب الزهـد، بـاب الـورع والتقـوىٰ، برقـم (٤٢١٧)، وصححـه الألبـاني في السلسـلة الصحيحـة، برقـم (١٧٤١).
(٣) ينظر: الورع، لابن أبي الدنيا، (ص ٣٧).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الإيمان، باب فضل من استبرأ لدينه، برقم (٥٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب البيوع، باب أخذ الحلال وترك الشبهات، برقم (١٥٩٩).
(٥) أخرجه البزار في مسنده، مسند حذيفة بن اليمان رضي الله عنهما، مطرف عن حذيفة، برقم (٢٩٧١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٦٨).
(٦) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٨١٤٩).

وأما سبلُ تحقيقِ الورع فعديدة، منها ما يأتي:

أولًا: تركُ بعض المباحات خشيةَ الوقوع في المحرَّمات، وهو بابٌ دقيق فيما يترك وما يفعلُ، قال ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «إنِّي أحبُّ أنْ أدعَ بيني وبين الحرام سترةً من الحلال، ولا أحرمها»[١]. وقال سفيان بن عيينة: «لا يصيب العبدُ حقيقةَ الإيمان حتىٰ يجعلَ بينه وبين الحرام حاجزًا من الحلال، وحتىٰ يَدَعَ الإثمَ وما تشابه منه»[٢]. وقال بعضُ السلف: «كنّا نَدَعُ سبعين بابًا من الحلال؛ مخافةَ أن نقع في الحرام»[٣].

ثانيًا: لزوم السنة والبعد عن الهوىٰ والبدعة، قال الأوزاعي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لقد كنّا نتحدث: أنَّه ما ابتدع رجلٌ بدعة إلّا سُلب ورعُه»[٤]. وقال أبو مظفر السمعاني رَحِمَهُ اللَّهُ في ذم علم الكلام: «وهل رأىٰ أحدٌ متكلِّمًا أدَّاه نظرُه وكلامُه إلىٰ تقوىٰ في الدين، أو ورعٍ في المعاملات، أو سدادٍ في الطريقة، أو زهدٍ في الدنيا، أو إمساكٍ عن حرام أو شبهة، أو خشوعٍ في عبادة، أو ازديادٍ في طاعة، أو تورعٍ عن معصية، إلا الشاذَّ النادر»[٥].

ثالثًا: استحضار لقاء الله، والخوف منه، فمن خاف من الله احتاط لدينه، وعظَّم حرماتِه، قال يحيىٰ بن معاذ رَحِمَهُ اللَّهُ: «الورع مِنْ ثلاث خصال: من عزِّ النفس، وصِحَّةِ اليقين، وتوقّعِ الموت»[٦]. وقال أبو عبد الله الأنطاكي: «الخوف يُكسب الورع»[٧].

---

(١) ينظر: الورع، للإمام أحمد، (ص ٥٩).
(٢) المرجع السابق، (ص ٥٩).
(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢٢).
(٤) ينظر: ذم الكلام وأهله، للهروي، (م ٥ / ص ١٢٧).
(٥) ينظر: الانتصار لأصحاب الحديث، لأبي المظفر السمعاني، (ص ٦٥).
(٦) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ١٠ / ص ٦٧).
(٧) ينظر: المصدر السابق، (م ٩ / ص ٢٩٠).

وإنْ تُرِدْ معرفةَ الخُشوعِ فالذلُّ للهِ معَ الخُضوعِ

ذكر الناظم في هذا البيت منزلةَ الخشوع، وهي من صفات النبيّين، وعبادات الصِّدِّيقين، ومنازلِ الصالحين، ودعوةِ الله للمؤمنين، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن الأنبياء: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن أهل العلم: ﴿وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]. والخشوع حريٌّ بالعناية؛ لأنه أولُ ما يُفقَد من هذه الأمة، فَعَنْ شَدَّادِ بْنِ أَوْسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَوَّلُ مَا يُرْفَعُ مِنَ النَّاسِ الْخُشُوعُ**»(١).

والخشوع في اللغة يدور معناه علىٰ التطامُن والانخفاض والخضوع والتواضع، وفي معجم مقاييس اللغة: «الخاء والشين والعين أصلٌ واحد يدلُّ علىٰ التطامن، يقال: خشع، إذا تطامنَ وطأطأ رأسَهُ، يَخْشَعُ خُشوعًا»(٢).

وأما الخشوع في الاصطلاح: فهو قيام القلب بين يدي الربِّ بالخضوع

(١) أخرجه الطبراني في معجمه، باب الشين، من اسمه شداد، شداد بن أوس الأنصاري، ما أسند شداد، الحسن بن أبي الحسن عن شداد بن أوس، برقم (٧١٨٣)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٥٤٣).
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٣١٦)، (خ ش ع)، وقريب منه لسان العرب، لابن منظور، (م ٨/ ص ٧١).

والذلّ[١]، وهو يجمع معاني المحبة والتعظيم والذلّ والانكسار والسكينة[٢].
قال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأصل الخشوع: هو لِينُ القلبِ ورِقَّتُهُ وسُكونُه، وخُضوعُهُ وانكسارُه وحُرْقتُه، فإذا خشعَ القلبُ، تَبِعَهُ خشوعُ جميعِ الجَوارحِ والأعضاء»[٣].

وللخشوع ثمرات وفوائد، وفضائل وعوائد، منها ما يأتي:

أولًا: الخشوع سبب مغفرة الذنوب وتكفير الخطايا، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في جملة صفات عظيمة: ﴿وَالْخَاشِعِينَ وَالْخَاشِعَاتِ﴾، ثم جعل الجزاءَ والثوابَ المغفرة: ﴿أَعَدَّ اللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٣٥]، وعن الصلاة الخاشعة قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ، فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا وَخُشُوعَهَا وَرُكُوعَهَا إِلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ يُؤْتِ كَبِيرَةً، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ**»[٤].

ثانيًا: الخشوع من أعظم أسباب الفلاح، ولذلك جاء في صدارة صفات أهل الفلاح، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ۞ الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ﴾ [المؤمنون: ١، ٢]، والفلاح معنىً يجمع للمرء خيري الدنيا والآخرة وسعادتَهما.

ثالثًا: الخشوع يخفّف علىٰ العباد الصلاةَ، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، فالصلاة كبيرة وشاقة إلا علىٰ أهل الخشوع، فإنها سهلة خفيفة عليهم، بل يجدون

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٢١).
(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م٧/ ص٢٨)، ومدارج السالكين، لابن القيم، (م١ / ص ٥٢٢).
(٣) ينظر: الذلّ والانكسار، لابن رجب، (ص ٣٥).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الطهارة، باب فضل الوضوء والصلاة عقبه، برقم (٢٢٨).

لذَّتهم وراحتهم وطمأنينتَهم في الصلاة.

ومن سبل تحقيق هذه المنزلة ـ عمومًا دون خصوص الصلاة ـ ما يأتي:

أولًا: الدعاء والتضرع بطلب الخشوع، والاستعاذة من القلوب التي لا تخشع، قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عِلْمٍ لا يَنْفَعُ، وَمِنْ قَلْبٍ لا يَخْشَعُ، وَمِنْ نَفْسٍ لا تَشْبَعُ، وَمِنْ دَعْوَةٍ لا يُسْتَجَابُ لَهَا**»(١)، وفي الدعاء المأثور أيضًا: «**خَشَعَ لَكَ سَمْعِي وَبَصَرِي وَمُخِّي وَعَظْمِي وَعَصَبِي**»(٢).

ثانيًا: الحرص على العلم النافع، لا سيما العلمُ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَى وصفاته، فمن كان بالله أعرفَ كان له أخشعَ، والعلم النافع إذا باشَر القلوبَ أحدث لها السكينةَ والخشيةَ والإخباتَ لله، والتواضع والانكسار له(٣)، قال رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ أَقْوَامًا يَقْرَؤُونَ الْقُرْآنَ لا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، وَلَكِنْ إِذَا وَقَعَ فِي الْقَلْبِ فَرَسَخَ فِيهِ نَفَعَ**»(٤)، وقال ابن رجب: «وتتفاوت القلوب في الخشوع بحسب تفاوت معرفتها لمن خشعت له، وبحسب تفاوت مشاهدة القلوب للصفات المقتضية للخشوع».(٥)

ثالثًا: الإكثار من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والذكر إنْ خالط القلوبَ أحدث فيها رقةً وخشوعًا، لذلك قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، برقم (٧٢٧٧).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب الدعاء في صلاة الليل وقيامه، برقم (٧٧١).
(٣) ينظر: الذلّ والانكسار، لابن رجب، (ص ١١).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب ترتيل القراءة واجتناب الهذ، برقم (٨٢٢).
(٥)) ينظر: الذلّ والانكسار، لابن رجب، (ص ٢٥).

لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى في أثر أعظم الذكر: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَى أيضًا: ﴿لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١].

🕮🕮🕮

ثم عتابُ القلبِ فالمحاسبهْ   خوفًا من العذابِ والمعاتبهْ

انتقل الناظمُ إلىٰ عبادةٍ قلبيةٍ مهمةٍ، ألا وهي منزلةُ المحاسَبة، وهي صفةُ المؤمن في سَيره إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فهو يحاسب نفسَه ويعاتبها علىٰ تفريطها، ويحثّها علىٰ تجديد السَير. وقد جاء عن الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ في قول الله: ﴿وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾ [القيامة: ٢]؛ أنّه قال: «لا تَلْقَىٰ المؤمنَ إلا يعاتب نفسه. ماذا أردتُ بكلمتي؟ ماذا أردت بأكلتي؟»[1]. وللمحاسَبة أثرٌ عظيم في صلاح القلب، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والمقصود أنَّ صلاح القلب بمحاسبة النفس، وفساده بإهمالها والاسترسال معها»[2]. والمحاسبة مصدرُ حاسب يحاسب، وهي مُفاعلة من الحِسَاب، بمعنىٰ العدِّ، تقول: حسِبت الشيء أحسِبه حَسْبًا وحُسَبانًا[3]، وفي الاصطلاح هو: النظر في أعمال النفس ومعاتبتها علىٰ التقصير، ثم استدراك الخطيئات، والمُضِي في الطاعات، قال الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «محاسبة النفس أن يتصفح الإنسان في ليلِه ما صدر من أفعال نهاره، فإنْ كان محمودًا أمضاه وأتبعه بما شاكَلَه وضاهاه، وإن كان مذمومًا استدركه إنْ أمكن، وانتهىٰ عن مثله في المستقبل»[4].

(١) ينظر: محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا، (ص ٢٤).
(٢) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ١٠١).
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص٢٦٣)، (ح س ب)، ولسان العرب، لابن منظور، (م١/ ص ٣١٣).
(٤) ينظر: أدب الدنيا والدين، للماوردي، (ص ٣٤٢)

وللمحاسبة ثمرات وفضائل نذكر منها ما يأتي:

أولًا: أنَّ المحاسبة علامةُ التقوىٰ، ومن لوازمها، ولذلك جاءت معها في سياق الآية في البدء والختام، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ لِغَدٍ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الحشر: ١٨]، قال ميمون بن مهران رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يكون الرجل من المتقين حتىٰ يحاسب نفسه أشدَّ من محاسبة شريكه»(١).

ثانيًا: حفظ النفس من نزغات الشيطان ومداخِلِه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. والتبصُّر بلَمَم الشيطان والانقطاع عنه والتوبة لا يحصل إلا بمحاسبة النفس ومَعَاتبها.

ثالثًا: الانشغال بعيوب النفس عن عيوب الناس، فمَن حاسب نفسه، ونظر في عيوبها؛ لم يجد وقتًا لعيوب غيره. قال عون بن عبد الله رَحِمَهُ اللَّهُ: «وما أحسب أحدًا يفرغ لعيب الناس إلا من غفلة غَفَلها عن نفسه، ولو اهتم بنفسه ما تفرغ لعيب أحد ولا ذمَّه»(٢)، وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يستحقّ أحدٌ حقيقةَ الإيمان حتىٰ لا يعيب الناسَ بعيب هو فيه، ولا يأمرُ بإصلاحِ عيوبِهم حتىٰ يبدأَ بصلاحِ ذلك من نفسِه، فإنه إذا فعل ذلك لم يصلح عيبًا إلا وجد في نفسه عيبًا آخر، فينبغي له أن يصلحه، فإذا فعل ذلك شُغل بخاصة نفسه عن عيب غيره»(٣).

---

(١) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٤ / ص ٨٩).
(٢) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٧٥٦٦).
(٣) ينظر: المجالسة وجواهر العلم، للدينوري، (ص ٤٠٨).

وأما السبيل لتحقيق منزلة المحاسبة ففي جملة أمور منها:

أولًا: أن يتذكر المرء أنَّ حساب النفس في الدنيا أهونُ من الحساب في يوم القيامة، قال عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «حاسبوا أنفسكم قبل أن تُحَاسَبوا، فإنه أهون لحسابكم، وزنوا أنفسكم قبل أن تُوزَنُوا، وتجهَّزوا للعرض الأكبر، ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ﴾ [الحاقة: ١٨]»(١). وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «المؤمن قوام على نفسه، يحاسب نفسه لله عَزَّ وَجَلَّ، وإنما خف الحساب يوم القيامة على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا، وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر على غير محاسَبة»(٢).

ثانيًا: التفكر في الجنة ونعيمها، والشوق إلى لقاء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، والنظر إلى وجهه الكريم، وإدراك أنَّ المحاسبة من أعظم ما يُعين على ذلك ويوصِل إليه، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ويعينه عليها أيضًا: معرفتُه أنَّ ربح هذه التجارة: سُكنى الفردوس، والنظر إلى وجه الرب سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، وخسارتَها: دخولُ النار، والحجابُ عن الرب تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإذا تيقَّن هذا هانَ عليه الحسابُ اليوم»(٣).

ثالثًا: التأمل في أحوال السلف، وكثرة خلوتهم بالنفس للمحاسبة، ودعوتهم لهذه العبادة، قال مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن المرء لَحقيقٌ أن يكون له مجالسٌ يخلو فيها يتذكر ذنوبَه يستغفر منها»(٤)، وقال إبراهيم التيمي رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما عرضت عملي على قولي إلا خشيت أن أكون مُكَذَّبًا»(٥)، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن العبد لا يزال بخير ما كان له واعظ من نفسه، وكانت المحاسبة همته»(٦).

---

(١) ينظر: الزهد، لابن المبارك، (ص ٣٠٦).
(٢) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٢ / ص ١٥٧).
(٣) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ٨٠).
(٤) ينظر: صفة الصفوة، لابن الجوزي، (م ٢ / ص ٦٣٢).
(٥) ينظر: المرجع السابق، (م ٢ / ص ٦٧٣).
(٦) ينظر: محاسبة النفس، لابن أبي الدنيا، (ص ٦).

واستحضِرَنْ أنَّ الرَّقيبَ يعلمُ ما يُعلِنُ العبدُ وما يُكَتِّمُ

يذكر الناظم في هذا البيت منزلة المراقبة، وهي بريد الأعمال القلبية المختلفة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرِض كلامه عن السكينة: «سببها: استيلاء مراقبة العبد لربه جلَّ في علاه، حتىٰ كأنه يراه، وكلما اشتدت هذه المراقبة أوجبت له من الحياءَ والسكينة والمحبة، والخضوع والخشوع، والخوف والرجاء: ما لا يحصل بدونها؛ فالمراقبة أساس الأعمال القلبية كلِّها، وعمودها الذي قيامها به»[1].

والمراقبة في اللغة مصدر قولهم: راقب مراقبة، وهو مأخوذ من مادة (رَقَبَ) التي تدل علىٰ الانتصاب لمراعاة شيء، ومن ذلك الرقيب، وهو الحافظ، والمَرْقَبُ المكان العالي يقف عليه الناظر، ومن ذلك اشتقاق الرقبة؛ لأنها منتصبة، ولأن الناظر لا بد أنْ ينتصب نظره[2].

وأما المراقبة في الاصطلاح فهو: دوام علم العبد وتيقُّنه باطِّلاع الحق عَزَّوَجَلَّ علىٰ ظاهره وباطنه، وهي التعبد باسمه: الرقيب، الحفيظ، العليم، السميع، البصير[3].

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين، لابن القيم، (م ٦ / ص ١١١).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص٤١٧)، (ر ق ب)، ولسان العرب، لابن منظور، (م١/ ص٤٢٤)، (ر ق ب).

(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٦٥).



وللمراقبة ثمرات كريمة، وفضائل منيفة، منها ما يأتي:

أولًا: الفوز بنعيم الجنة، فمَن راقب اللهَ، وحفظه بالغيب؛ نال الموعود الكريم في قوله تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُمْ مَا يَشَاءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ﴾ [ق: ٣١ - ٣٥].

ثانيًا: تحقيق مقام الإحسان في عبادة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، ففي حديث جبريل المشهور لما سأل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإحسان؛ قال: «**أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك**»[١]، وفي وصية النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «**اعبد الله كأنك تراه، واعدد نفسك في الموتى**»، وقوله: «**اعبد الله كأنك تراه**»[٢]؛ فهذا مقام المراقبة، الجامع لمقامات الإسلام والإيمان والإحسان[٣].

ثالثًا: الفوز بظل العرش يوم القيامة، وحينما ذكر نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ السبعة الذين يظلّهم الله في ظله يومَ لا ظلَّ إلا ظلّه؛ عدَّ منهم: «**وَرَجُلٌ دَعَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللهَ**»[٤]، فاستحضاره نظر الله ومراقبته حالَ بينه وبين الشهوات.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن الإيمان والإسلام، برقم (٥٠)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، برقم (٨).

(٢) أخرجه الطبراني في معجمه، باب الميم، من اسمه معاذ، معاذ بن جبل الأنصاري، ومن روى عنه من أهل البصرة، المراسيل عن معاذ بن جبل، برقم (٣٧٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٤٧٥).

(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢١٧).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة باليمين، برقم (١٤٢٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، برقم (١٠٣١).

ومن سبل تحقيق هذه المنزلة ما يلي:

أولًا: استحضار الإخلاص في العمل، والنظر في الباعث، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ينبغي أن يراقبَ الإنسان نفسه قبل العمل وفي العمل، هل يحرِّكه عليه هوىٰ النفسِ، أو المحرك له هو الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ خاصةً؟ فإنْ كان لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أمضاه، وإلا تركه، وهذا هو الإخلاص. قال الحسن: رحم الله عبدًا وقف عند همِّه، فإن كان لله مضىٰ، وإنْ كان لغيره تأخَّر، فهذه مراقبة العبد في الطاعة، وهو أنْ يكون مخلصًا فيها»[1].

ثانيًا: الإكثار من ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، لا سيما ما تواطأ عليه القلبُ واللسان من الذكر، وذكر ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في ثمرات الذكر: «أنه يورث المراقبةَ، حتىٰ يَدخل في باب الإحسان، فيعبد الله كأنه يراه، ولا سبيلَ للغافل عن الذكر إلىٰ مقام الإحسان»[2].

ثالثًا: استحضار أسماء الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الحسنىٰ التي لها صلة بعبودية المراقبة، مثل اسم الله: الرقيب، والشهيد، والحفيظ، والمحيط، والعليم، والسميع، والبصير، فكلُّ هذه الأسماء فيها معاني اطلاع الله علىٰ جميع أعمال الخلق ظاهرها وباطنها، صغيرها وكبيرها، ومتىٰ ما استحضرها العبدُ ازداد في الطاعات، وابتعد عن المحرمات.

❑❑❑

---

(١) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (ص ٣٩٢).
(٢) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (ص ٩٥).



تَفَكُّرٌ: تأمُّلُ الدلائلِ والشكرُ قُلْ ذكرُكَ للفضائلِ

ذكر الناظم في هذا البيت منزلتين، الأولىٰ: منزلة التفكر، والثانية: منزلة الشكر، والتفكر من أفضل العبوديات، ومن أجلِّ المقامات. قال عون بن عبدالله رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سألْنا أمَّ الدرداء رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، قلنا: ما كان أفضل عبادة أبي الدرداء؟ قالت: التفكر والاعتبار»[1]، وقال عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الفكرة في نِعَمِ الله أفضل العبادة»[2]، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والتذكر والتفكر منزلان يُثمران أنواعَ المعارف، وحقائقَ الإيمان والإحسان»[3].

والتفكر في اللغة: التأمل والنظر، وتردُّد القلب في الشيء، يقال: تفكَّر إذا ردَّد قلبه معتبراً[4].

والتفكر في الاصطلاح: تردّد القلب بالنظر والتأمل في الدلائل لطلب المعاني[5].

وللتفكر ثمار يانعة، وفضائل ساطعة، منها ما يأتي:

أولًا: أهل التفكر هم أصحاب العقول الذكية، والقلوب الواعية، الذين يقودهم التفكُّر في خلق الله إلىٰ تعظيم الله وتمجيده، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ فِي

(١) ينظر: الزهد، لابن المبارك، برقم (٢٨٦)، والزهد، لأحمد، برقم (١٣٥).
(٢) الحلية، لأبي نعيم، (م ٥ / ص ٣١٤).
(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٤١).
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص٨٢٥)، (ف ك ر)، ولسان العرب، لابن منظور، (م٥/ ص ٦٥)، (ف ك ر).
(٥) ينظر: فيض القدير، للمناوي، (م٤/ ص٣٦٧)، ومجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م٤/ ص٣٩).

خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ [آل عمران: ١٩٠، ١٩١].

ثانيًا: المتفكِّرون في الدلائل هم الذين ينتفِعون بالآيات والأمثال والعظات، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [الرعد: ٤].

ثالثًا: التفكر يقود للعمل واغتنام اللحظات، والتوبة والبعد عن الغفلات، قال قتادة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن تفكَّر في خَلق نفسه، عرف أنَّه إنما خُلق ولِينَت مفاصلُه للعبادة»[(١)]، وقال وهب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما طالت فكرة امرئ قط إلا فَهِم، وما فهم امرؤ قط إلا عَلِم، وما علم امرؤ قط إلا عَمِل»[(٢)]، وقال الفضيل رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «التفكر مرآة تريك حسناتِك وسيئاتك»[(٣)]. يقول ابن القيم: «وهذا الفكر يُثمر لصاحبه المحبة والمعرفة، فإذا فكر في الآخرة وشرفها ودوامها، وفي الدنيا وخسَّتها وفنائها، أثمر له ذلك الرغبةَ في الآخرة، والزهد في الدنيا، وكلما فكر في قِصَر العمل وضيق الوقت أورثه ذلك الجِدَّ والاجتهاد، وبذل الوسع في

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٤ / ص ٢٩٧).
(٢) ينظر: العظمة، لأبي الشيخ، (م ١ / ص ٣١٣).
(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ٢٢٧).

اغتنام الوقت»[١]. وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَالتَّفَكُّرُ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَفِي أُمُورِ الْآخِرَةِ، وَمَا فِيهَا مِنَ الْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مِمَّا يُزِيدُ الْإِيمَانَ فِي الْقَلْبِ، وَيَنْشَأُ عَنْهُ كَثِيرٌ مِنْ أَعْمَالِ الْقُلُوبِ؛ كَالْخَشْيَةِ، وَالْمَحَبَّةِ، وَالرَّجَاءِ، وَالتَّوَكُّلِ، وَغَيْرِ ذَلِك، وَقَدْ قِيلَ: إِنَّ هَذَا التَّفَكُّرَ أَفْضَلُ مِنْ نَوَافِلِ الْأَعْمَالِ»[٢].

ومن السبل التي توصل إلى هذه العبادة ما يأتي:

أولًا: البعد عن المعاصي وصوارف القلب المُشغلة، وفي قول الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦] قال بعض العلماء: أي أمنعَ قلوبَهم التفكُّرَ. وعن أبي العالية الرياحي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أنه سأله رجل: ما يفتح الفكرَ؟ قال اجتماع الهمِّ، فإنه إذا همَّ فكَّر، وإذا فكر أبصر، وإذا أبصر اعتبر»[٣]. قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فإذا قطعَ العبدُ شُغْلَ جوارحِه عنِ الدنيا في وقت فكرته وتقيُّده، ومنع قلبه من التشتت في ميادين الأمور الدنيوية؛ اجتمع همُّه، وحضر عقلُه»[٤].

ثانيًا: الخلوة بالنفس للتفكر والتأمل، وقد كان نبينا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يخلو في الغار قبل نزول الوحي. قالت عائشة رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا: «قَالَتْ: كَانَ أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْوَحْيِ: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةَ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَىٰ رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، فَكَانَ يَخْلُو بِغَارِ حِرَاءٍ

(١) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٩٨).
(٢)) ينظر : جامع العلوم والحكم، لابن رجب (٩١)
(٣) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ١٠ / ص ١٤٣).
(٤) ينظر: فيض القدير، للمناوي، (م ٢ / ص ٤٧٥).

يَتَحَنَّثُ فِيهِ»(١). قال الخطّابي: «حبّب العزلة إليه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ؛ لأنّ معها فراغَ القلب، وهي معينة علىٰ التفكر»(٢)، وقال الحسن البصري رَحِمَهُٱللَّهُ: «طول الوحدة أتمُّ للفكرة، وطول الفكرة دليلٌ علىٰ طريق الجنة»(٣).

ثالثًا: زيارة المقابر، واستحضار مشاهد الآخرة، وتقليبُ النظر فيها؛ مما يحث الإنسانَ علىٰ التفكر، ويقوده للعمل الصالح. قال يوسف بن أسباط: «قال لي سفيان – وصلينا العشاء الآخرة – ناوِلْني المطهرة، فناولته، فأخذها بيمينه، ووضع يساره علىٰ خدّه، ونِمْتُ، فاستيقظت وقد طلع الفجر؛ فإذا المطهرة بيمينه كما هي، فقلت: هذا الفجر قد طلع، فقال: لم أزل منذ ناولتني المطهرة أتفكر في الآخرة حتىٰ الساعة»(٤)، وقال ابن المبارك لبعض أصحابه، وقد رآه مفكِّرًا: «أين بلغتَ؟ قال: الصراط»(٥)، وقال مغيث بن الأسود رَحِمَهُٱللَّهُ: «زوروا القبور تفكّرْكم»(٦).

وأما منزلة الشكر فهي من قواعد الدين، مع ذكر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، ولذلك جُمعت معًا في النصوص، قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: ١٥٢]، وفي وصية النبي صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لمُعَاذِ بْنِ جَبَل، وفيه أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلَاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ،**

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي إلىٰ رسول الله، برقم (٣)، وأخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلىٰ رسول الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، برقم (١٦٠).
(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، (م ٢ / ص ٣٤٨).
(٣) ينظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٣٩).
(٤) ينظر: تاريخ بغداد، للخطيب، (م ٩ / ص ١٥٧).
(٥) ينظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٣٩).
(٦) ينظر: أهوال القبور، لابن رجب، (ص ١٥٤).

وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ»[1].

والشكر في اللغة: الثناء والامتلاء والغزر، ويقال: حقيقةُ الشكر الرضا باليسير، يقولون: فرسٌ شكورٌ، إذا كفَاهُ لِسِمَنِه العَلَفُ القليل[2].

والشكر في الاصطلاح: ظهورُ أثرِ نعمةِ الله علىٰ لسان عبده ثناءً واعترافًا، وعلىٰ قلبه شهودًا ومحبةً، وعلىٰ جوارحِهِ انقيادًا وطاعةً[3]، قال الفرّاء: «الشكر: معرفةُ الإحسان، والتحدُّثُ به»[4].

وفي الفرق بين الحمد والشكر كلامٌ طويل خلاصته ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشكرُ أعمُّ من جهةِ أنواعهِ وأسبابهِ، وأخصُّ من جهةِ متعلَّقاته، والحمد أعمُّ من جهة المتعلقات، وأخصُّ من جهة الأسباب»[5]، «والمدح أعمُّ من الحمد؛ لأنه يكون للحيِّ وللميت وللجمادِ أيضًا، كما يُمدح الطعامُ والمالُ ونحو ذلك»[6].

وعَقَدَ أهل العلم المفاضلةَ بين الغنيِّ الشاكرِ والفقيرِ الصابر، فقدَّم بعضُهم الصبر، وبعضُهم الشكر، وتوسَّطَ البعضُ بأنه ليس لأحدهما فضيلة إلا بالتقوىٰ، وقد يكون صبر الغني أكملَ من صبر الفقير، كما قد يكون شكر

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، برقم (١٥٢٢)، والنسائي في سننه، كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، برقم (١٣٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٥٩٦).
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٥٣٤)، (ش ك ر).
(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢٤٤).
(٤) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (م ٢ / ص ١٦٦).
(٥) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢٤٦).
(٦) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ١ / ص ١٢٨).

الفقير أكمل، فأفضلهما أتقاهما وأعظمهما شكرًا وصبرًا[١].

وأما ثمرات الشكر وفوائده فمنها ما يأتي:

أولًا: الشكر أساس بقاء النعم وزيادتها، فالنعم تَعْظُم وتكثُر وتتوالى وتزيد بقدر شكر العبد لربّه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: ٧]، قال عمر بن عبدالعزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قيِّدوا النعمَ بشكر الله»[٢]، ويقول الربيع بن أنس رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الله ذاكرٌ مَن ذَكَرَه، وزائدٌ من شكره، ومُعذِّبٌ من كَفَرَه»[٣]، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «هذا الرزق إنما يَتم ويَكمل بالشكر، والشكر مادة زيادتِه، وسبب حفظه وبقائه، وترك الشكر سبب زواله وانقطاعه عن العبد»[٤].

ثانيًا: الشكر سبيل النجاة، فمن حقق الإيمانَ والشكر جُزي بالأمن من الهلكة، وحصل له النجاةُ والسلامة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ [النساء: ١٤٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عن قوم لوط: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ ۝٣٣ إِنَّا أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ حَاصِبًا إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ ۝٣٤ نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٣ - ٣٥]. قال أبو العالية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إني لأرجو ألا يهلك عبدٌ بين نعمة يَحمد الله عليها، وذنب يستغفر منه»[٥]، وقال الحسن البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إن الله لَيُمتِّع بالنعمة ما شاء، فإذا لم يُشكر: قَلَبَها عليهم عذابًا»[٦]، وقال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ:

---

(١) ينظر: طريق الهجرتين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٥٧٧)، وعدة الصابرين، لابن القيم، (ص ٢٩٧).
(٢) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٤٥٤٦).
(٣) ينظر: جامع البيان، للطبري، (م ٢ / ص ٣٩).
(٤) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، (ص ٣٤٧).
(٥) ينظر: الشكر، لابن أبي الدنيا، (ص ٨٨).
(٦) ينظر: المصدر السابق، (ص ١٧).

«إنَّ الله جلَّ ثناؤُه لا يعذب شاكرًا، ولا مؤمنًا»(١).

ثالثًا: الشكر بريدٌ إلىٰ مرضاة الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ يرضىٰ لعباده الشكر، ولا يرضىٰ لهم الكفر، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، والله يرضىٰ عن العبد يأكل ويشرب فيحمد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ لَيَرْضَىٰ عَنِ الْعَبْدِ أَنْ يَأْكُلَ الْأَكْلَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا، أَوْ يَشْرَبَ الشَّرْبَةَ فَيَحْمَدَهُ عَلَيْهَا**»(٢).

ومن سبل تحقيق هذه المنزلة ما يأتي:

أولًا: النظر في نعم الله الكثيرة، فنعم الله متتابعة لا تُحصىٰ، ومتوالية لا تُستقصىٰ، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ٦٩]، فتذكُّر النعم يَستَحِثُّ العبدَ علىٰ شكرِها، يقول الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «ذكرُ النعمة سببٌ باعثٌ علىٰ شكرها»(٣)، وما ألطف ما قاله بكر بن عبد الله المزني رَحِمَهُ اللَّهُ: «يا بن آدم، إذا أردت أنْ تعلم قدرَ ما أنعم الله عليك؛ فغمِّض عينيك»(٤).

ثانيًا: النظر إلىٰ مَن هو دونك، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**انْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ، وَلَا تَنْظُرُوا إِلَىٰ مَنْ هُوَ فَوْقَكُمْ، فَهُوَ أَجْدَرُ أَلَّا تَزْدَرُوا نِعْمَةَ اللهِ**»(٥)، ولقد فاوت الله بين الخلق لتظهر مثلُ هذه العبوديات، يقول ابن القيم

---

(١) ينظر: جامع البيان، للطبري، (م ٤ / ص ٣٣٨).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ بعد الأكل والشرب، برقم (٢٧٣٤).
(٣) ينظر: فتح القدير، للشوكاني، (م ٢ / ص ٣١٧).
(٤) ينظر: الشكر، لابن أبي الدنيا، (ص ١٨٢).
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، برقم (٢٩٦٣).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فالشكر أحبُّ شيء إليه، وأعظم ثوابًا، وله خَلق الخلقَ، وأنزل الكتبَ، وشرع الشرائعَ، وذلك يستلزم خلقَ الأسباب التي يكون الشكر بها أكمل، ومن جملتها: أنْ فاوتَ بين عباده في صفاتهم الظاهرة والباطنة: في خلقِهم، وأخلاقهم، وأديانهم، وأرزاقهم، ومعايشهم، وآجالهم، فإذا رأىٰ المعافَىٰ المبتلىٰ، والغنيُّ الفقيرَ، والمؤمنُ الكافرَ، عظُم شكرُه لله، وعرف قدرَ نعمته عليه، وما خصَّه به، وفضَّله به علىٰ غيره، فازداد شكرًا، وخضوعًا، واعترافًا بالنعمة»[1].

ثالثًا: سؤال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ الإعانةَ علىٰ الشكر، كما مضىٰ معنا في وصية النبي صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لمعاذ بن جبل رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَخَذَ بِيَدِهِ، وَقَالَ: «**يَا مُعَاذُ، وَاللهِ إِنِّي لَأُحِبُّكَ**»، فَقَالَ: «**أُوصِيكَ يَا مُعَاذُ: لا تَدَعَنَّ فِي دُبُرِ كُلِّ صَلاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعِنِّي عَلَىٰ ذِكْرِكَ، وَشُكْرِكَ، وَحُسْنِ عِبَادَتِكَ**»[2].

(١) ينظر: شفاء العليل، لابن القيم، (ص ٢٢١).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب في الاستغفار، برقم (١٥٢٢)، والنسائي في سننه، كتاب السهو، باب نوع آخر من الدعاء، برقم (١٣٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٥٩٦).



ثمَّ سُكونَ النَّفسِ إنْ حانَ القَضَا وحبسُها عن جزعٍ ذاكَ الرضا

ذكر الناظم في هذا البيت منزلةَ الرضا، وهي روحُ العبادة، وعنوانُ السعادة، ونبراسُ الكفاية، قال غيلان بن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من أعطي الرضا والتوكل والتفويض فقد كُفِيَ»[١]، وقال ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ في معرِض الحديث عن الانتقال من درجة الصبر إلىٰ الرضا: «وإنِ ارتقىٰ إلىٰ الرضا رأىٰ أنَّ الرضا جنةُ الدنيا، ومستراحُ العابدين، وبابُ الله الأعظم»[٢]، وقال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الرضا آخِذ بزمام مقامات الدين كلِّها، وهو رُوحها وحياتها، فإنه روح التوكل وحقيقته، وروح اليقين، وروح المحبة، وصحة المُحب، ودليل الصدق، وروح الشكر ودليله»[٣]، وقال ابن رجب: «فَأَما الرِّضَا بِالْقضَاءِ فَهُوَ من عَلَامَات المختبين الصَّادِقين فِي الْمحبَّة، فَمَتَىٰ امْتَلَأت الْقُلُوب بمحبة مَوْلَاهَا رضيت بِكُل مَا يَقْضِيه عَلَيْهَا من مؤلم»[٤].

والرضا في اللغة: مصدر ضد السخط، تقول: رضي يرضىٰ رِضىً، وهو راضٍ، ومفعوله مَرضيٌّ عنه[٥].

---

(١) ينظر: الرضا عن الله، لابن أبي الدنيا، (ص ١٠١).
(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١٧ / ص ٢٧).
(٣) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ١١٧).
(٤) ينظر: شرح حديث (لبيك اللهم لبيك)، لابن رجب، (ص ٥٤).
(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٤٠٦)، (ر ض ي)، وتهذيب اللغة، للأزهري، (م ١٢ / ص ٦٤)، (ر ض ي)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٥ / ص ٢٣٥)، (ر ض ي).

والرِّضا اصطلاحًا: سكونُ النفس، وارتفاع الجَزَعِ عندَ القضاء[١]، فالرضا فيه انشراح الصدر وسعته بالقضاء والأحكام، والراضي لا يتمنّىٰ غيرَ حاله التي هو عليها[٢].

وأما ثمرات الرضا فهي كثيرة، وقد فصَّلها وحرَّرها ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في (مدارج السالكين)، منها ما يأتي:

أولًا: جزاء الرضا رضا الرب عن العبد، ورضوان الله عن العبد من الغايات العظيمة، ومن المِنَنِ التي يَتَفَضَّل الرب بها علىٰ أهل الجنة كما في الصحيح، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، يَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ رَضِيتُمْ؟ فَيَقُولُونَ: وَمَا لَنَا لَا نَرْضَىٰ وَقَدْ أَعْطَيْتَنَا مَا لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، فَيَقُولُ: أَنَا أُعْطِيكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ، قَالُوا: يَا رَبِّ، وَأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فَيَقُولُ: أُحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَانِي فَلَا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا**»[٣]، فمن حقق الرضا نال الرضا، والجزاء من جنس العمل، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ عِظَمَ الْجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ الْبَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السُّخْطُ**»[٤].

ثانيًا: ذَوق طعم الإيمان، فلِلإيمان حلاوةٌ وطعمٌ عجيب، ولذةٌ يجدها

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ١٧٧)، والتوكل علىٰ الله، لابن أبي الدنيا، (ص ٤٦)، وفتح الباري، لابن حجر، (م ١١ / ص ١٨٧).
(٢) ينظر: الرضا عن الله، لابن أبي الدنيا، (ص ٢٣).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب صفة الجنة والنار، برقم (٦٥٤٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب إحلال الرضوان علىٰ أهل الجنة، برقم (٢٨٢٩).
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في الصبر علىٰ البلاء، برقم (٢٣٩٦)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٢٢٠).



الصادق مع ربه، ومن جملة ما يحقق ذلك الرضا بالله ربًا، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**ذَاقَ طَعْمَ الْإِيمَانِ مَنْ رَضِيَ بِاللهِ رَبًّا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا**»[(١)].

ثالثًا: مغفرة الذنوب، فإنَّ تجاوُزَ الله وسترَه علىٰ العبد يتحقق بالرضا بالله، قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**مَنْ قَالَ حِينَ يَسْمَعُ الْمُؤَذِّنَ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، رَضِيتُ بِاللهِ رَبًّا، وَبِمُحَمَّدٍ رَسُولًا، وَبِالْإِسْلَامِ دِينًا؛ غُفِرَ لَهُ ذَنْبُهُ**»[(٢)].

ومن أسباب الوصول لمنزلة الرضا ما يأتي:

أولًا: دعاء الله أنْ يرزقه الرضا، ومن ذلك الدعاء العظيم الذي علَّمه النبي ﷺ زيدَ بن ثابت، «**أَسْأَلُكَ اللَّهُمَّ الرِّضَا بَعْدَ الْقَضَاءِ، وَبَرْدَ الْعَيْشِ بَعْدَ الْمَمَاتِ، وَلَذَّةَ نَظَرٍ إِلَىٰ وَجْهِكَ، وَشَوْقًا إِلَىٰ لِقَائِكَ، مِنْ غَيْرِ ضَرَّاءَ مُضِرَّةٍ، وَلَا فِتْنَةٍ مُضِلَّةٍ**»[(٣)].

ثانيًا: التعرف علىٰ معاني صفات الله تبارك وتعالىٰ اللطيف العليم الحكيم الرحيم، فإن ذلك يورِث الطمأنينةَ والرضا؛ حيث يدرك أنَّ أفعال الله لها حِكَم بليغة، ومقاصدُ دقيقة، قال الفضيل بن عياض رحمه الله: «أحقُّ الناس بالرضا عن الله أهلُ المعرفة بالله»[(٤)]، وقيل للحسن البصري رحمه الله: «مِن أين

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًّا، برقم (٣٤).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الصلاة، باب القول مثل قول المؤذن لمن سمعه، برقم (٣٨٦).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار رضي الله عنهم، حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه، برقم (٢٢٠٦٩)، وصححه الألباني في ظلال الجنة، برقم (٤٢٦).
(٤) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٨ / ص ١٠٤).

أتى قلةُ الرضا عن الله؟ قال: من قلة المعرفة بالله»[(١)].

ثالثًا: الثقة بالله وحسن تدبيره، واعتقاد أنَّ اختيارَ الله لعبده المؤمنِ خيرٌ من اختياره لنفسه؛ لأنَّ العبد لا يعرف مصلحةَ نفسه من كل وجه، بل كثير من اختيارات العبد في عكس مصلحته، واختيارات الربِّ فيها مصالحُ العباد وإنْ كرِهها العبد في الظاهر ولم يعرف أسبابها[(٢)]، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ خَيۡرٞ لَّكُمۡۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّواْ شَيۡـًٔا وَهُوَ شَرّٞ لَّكُمۡۚ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ وَأَنتُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ ٢١٦﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِن كَرِهۡتُمُوهُنَّ فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـًٔا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا ١٩﴾ [النساء: ١٩].

📖📖📖

---

(١) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، (م ٣٦ / ص ٣٣٣).

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٤٣)، ومدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ١٧٥).

وحبسُها أيضًا إذا بُليتَا	كفًّا ومنعًا فاصطبرْ جُزيتَا

يذكر الناظم في هذا البيت منزلةَ الصبر، والصبر كنز المهاجر إلىٰ ربه، وزاد المسافر إلىٰ الآخرة، قال عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَجَدْنَا خَيْرَ عَيْشِنَا بِالصَّبْرِ»[1]، وقال الحسن رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبرُ كنزٌ من كنوز الخير، لا يعطيه اللهُ إلا لعبدٍ كريمٍ عليه»[2]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والنفسُ مطيَّةُ العبدِ التي يسير عليها إلىٰ الجنة أو النار، والصبرُ لها بمنزلةِ الخِطَام والزِّمَام للمطيّة، فإنْ لم يكن للمطية خطامٌ ولا زمام شَرَدَت في كل مذهب»[3]، وقال ابن حبّان رَحِمَهُ اللَّهُ: «الصبرُ جِمَاعُ الأمر، ونظامُ الحَزْم، ودعامةُ العقل، وبذرُ الخير، وحيلةُ مَن لا حيلةَ له»[4].

والصبر في اللغة هو الحَبْس، يقال: صبَرْتُ نفسي علىٰ ذلك الأمر، أي حبستها، والمَصْبورة: المحبوسة علىٰ الموت، ونهىٰ النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عن قتل شيء من الدوابّ صبراً، والصَّبْر: نقيضُ الجَزَع، والتصبُّر: تكلُّف الصبر[5].

والصبر اصطلاحًا: منع النفس عن الشهوات، وحبسها علىٰ مكابدة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه معلقًا، كتاب الرقاق، باب الصبر عن محارم الله، (م ٨ / ص ٩٩).
(٢) ينظر: الصبر، لابن أبي الدنيا، (ص ١٦).
(٣) ينظر: عدة الصابرين، لابن القيم، (ص ٢٥).
(٤) ينظر: روضة العقلاء، لابن حبان، (ص ١٦١).
(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص٥٨٤)، (ص ب ر)، وتاج العروس، للزبيدي، (م٢ / ٢٧٣)، (ص ب ر)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٤ / ص ٤٣٨)، (ص ب ر).



الطاعات والبليات، فالصبر فيه شِقان: شقُّ الكفِّ والمنع للنفس عن الهوىٰ والمعصية، والشقُّ الثاني حبس النفس علىٰ ما أُمِر به من طاعة الله، وحبسها علىٰ حسن المقام مع البلاء، وهي أنواع الصبر الثلاثة: صبر علىٰ طاعة الله، وصبر عن معصية الله، وصبر علىٰ أقدار الله[١].

وأما ثمرات الصبر فهي كثيرة، وفضائله غزيرة، منها ما يأتي:

أولًا: الصبر طريق الجنة، ولا شكَّ أنها من أعظم المكاسب، وأسمىٰ المطالب، وأعلىٰ المرابح، فَمَن وطَّن نفسه علىٰ الصبر بأنواعه نال الموعودَ الكريم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَزَاهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٢]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: ٢٤]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ اللهَ قَالَ: إِذَا ابْتَلَيْتُ عَبْدِي بِحَبِيبَتَيْهِ فَصَبَرَ عَوَّضْتُهُ مِنْهُمَا الْجَنَّةَ**»[٢].

ثانيًا: بالصبر واليقين تُنال الإمامةُ في الدين، فلا يَبلغ المرءُ رُتَبَ الإمامة في الدين ومحلَّ الاقتداء إلا بعد الصبر واليقين، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ۝٢٤﴾ [السجدة: ٢٤]. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمتىٰ فقدت الصبر واليقين كنت كمَن أراد السفر في البحر بلا مركب»[٣].

ثالثًا: بالصبر يَنال المؤمن محبة الله ومعيَّته، ومن نال المحبةَ والمعيَّة

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ١٥٧)، وجامع البيان، للطبري، (م ٢ / ص ١١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المرضىٰ، باب فضل من ذهب بصره، برقم (٥٦٥٣).
(٣) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ٢٢٠).



فقد ظفر؛ لأنَّ معه القوّة التي لا تُغلَب، والعزة التي لا تُقهر، ومعه التسديد والرعاية، والتأييد والكفاية، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦].

رابعًا: بالصبر تُغفَر الذنوب وتتضاعف الأجور، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [هود: ١١]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا﴾ [القصص: ٥٤]، قال سليمان بن القاسم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل عمل يُعرَف ثوابُه إلا الصبر، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: ١٠] قال: كالماء المنهمِر»[1]، وقال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ليس يثوزَن لهم، ولا يُكال لهم، إنما يُغرَف لهم غَرفا»[2].

خامسًا: حصول الظَّفر، والأمن من كيد العدو، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿بَلَىٰ إِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُم بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ [آل عمران: ١٢٥]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ [آل عمران: ١٢٠]، وفي الحديث: «**وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا**»[3]، قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أصلُ الصبر الحزمُ، وثمرته الظفر»[4].

---

(١) ينظر: ذم الهوى، للهروي، (ص ٦٠).

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٤ / ص ٤٩).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، مسند بني هاشم رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، مسند عبد الله بن العباس بن عبد المطلب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (٢٨٤٩)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٢٣٨٢).

(٤) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، (م ٥١ / ص ٤٠٨).

ومما يعين على تحقيق الصبر أمور، منها ما يلي:

أولًا: معرفة جزاء الصبر، الذي أشرنا إلى قطوفٍ منه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿نِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ ۝ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٨، ٥٩]، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يَوَدُّ أَهْلُ الْعَافِيَةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِينَ يُعْطَى أَهْلُ الْبَلَاءِ الثَّوَابَ لَوْ أَنَّ جُلُودَهُمْ كَانَتْ قُرِضَتْ فِي الدُّنْيَا بِالْمَقَارِيضِ**»(١)، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «ملاحظة حسن العاقبة تُعين على الصبر»(٢).

ثانيًا: الاستعانة بالله، والتضرعُ إليه، وسؤالُه العونَ على الصبر، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [النحل: ١٢٧]. قال ابن كثير رَحِمَهُ اللَّهُ: «إخبارٌ بأنَّ ذلك - أي الصبر - لا يُنال إلا بمشيئة الله، وإعانتِه، وحولِه، وقوتِه»(٣).

ثالثًا: استحضار أنَّ الصبرَ عاقبتُه الفرجُ مِن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فَمَن صبر واحتسب كان التفريجُ قريبًا منه، وانظر إلى صبر الأنبياء والصالحين، وكيف كان الفرجُ بعد حين، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَى من رحمته أنْ جعل مع كل عسرٍ يسرين، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ۝ إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾ [الشرح: ٥، ٦]، والمرء في دار امتحان، والمصائب تَمتحن صبر الإنسان، لكنَّ البلاء مؤقَّت، والفرج قادم.

📖📖📖

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٢٤٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٣٤٠٤).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ١٦٦).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٢ / ص ٥٩٣).



وغيرةٌ؛ حميَّةٌ للشرعِ	ثم الحياءُ باعثٌ للمَرْعِي
وكلُّ ما قبَّحه الشرعُ فَذَرْ	والعرفُ إنْ وافق شَرْعًا يُعْتَبَرْ

يشير الناظم في هذين البيتين إلىٰ منزلتين من منازل القلوب، وهما: الغَيرة والحياء، والغَيرة كما قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والدين كلُّه من هذه الغَيرةِ، بل الغيرةُ هي الدين»[1]، وقال أيضًا: «وأشرف الناس وأعلاهم همةً أشدهم غيرةً علىٰ نفسه، وخاصته، وعمومِ الناس»[2].

والغَيرة لغة: مصدر من قولك: غار الرجل علىٰ أهله، والمرأة علىٰ بَعْلها، تغار غَيرةً وغيرًا وغارًا وغَيارًا، والغَيرة هي الحَمِيَّة والأنَفَة[3].

والغيرة في الاصطلاح العام: كراهة الرجل أنْ يشاركَه غيرُه فيما هو حقُّه[4]، وذِكرُ الرجالِ هنا علىٰ سبيل التمثيل، وإلا فالغَيرة غريزة في الرجال والنساء، وأما الغَيرة في الشرع فهي الحَمِيَّة والغضبُ لشرع الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، كالغَيرة علىٰ حدود الله وحرماتِه إذا انتُهِكَت[5].

(١) ينظر: روضة المحبين، لابن القيم، (ص ٤١١).
(٢) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ١٦٣).
(٣) ينظر: مختار الصحاح، للرازي، (م٢ / ص ٧٧٦)، (غ ي ر)، ولسان العرب، لابن منظور، (م٥ / ص ٣٤)، (غ ي ر)، وتاج العروس، للزبيدي، (م٢٠/ ص ٥٣١)، (غ ي ر).
(٤) ينظر: التعريفات للجرجاني، (ص ١٦٣)، والكليات، للكفوي، (ص ٦٧١).
(٥) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م٣ / ص ٤٣)، والفوائد، لابن القيم، (ص ٤٨-٤٩)، وروضة المحبين، لابن القيم (ص ٤١١).



وللغيرة ثمرات وفوائد منها ما يأتي:

أولًا: حفظ حدود الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وتعظيم الشعائر، والبعد عن المحرمات، فالغيرة باعثٌ قلبيٌّ علىٰ اجتناب ما يُغضِب الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، ومن غَيْرَةِ الله أنّه حرَّم الفواحش، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا مِنْ أَحَدٍ أَغْيَرُ مِنَ اللهِ، مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ حَرَّمَ الْفَوَاحِشَ، وَمَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْمَدْحُ مِنَ اللهِ**»[1]، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالغيرة تُحمي القلبَ، فتحمىٰ له الجوارحَ، فتدفع السوءَ والفواحش، وعدم الغيرة يُميت القلبَ، فتموت الجوارحُ، فلا يبقىٰ عندها دفعٌ البتة»[2].

ثانيًا: الغيرة صفة من صفات المؤمنين، وعلامة علىٰ قوة الدين، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ يَغَارُ، وَإِنَّ الْمُؤْمِنَ يَغَارُ، وَغَيْرَةُ اللهِ أَنْ يَأْتِيَ الْمُؤْمِنُ مَا حَرَّمَ عَلَيْهِ**»[3].

ثالثًا: الغيرة المنضَبِطة في المؤمن صفةٌ يحبها الله، وهي الغيرة التي تكون في رِيبة وعند وجود أسبابها، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِنَ الْغَيْرَةِ مَا يُحِبُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنَ الْخُيَلَاءِ مَا يُحِبُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، وَمِنْهَا مَا يُبْغِضُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُحِبُّ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَالْغَيْرَةُ فِي الرِّيبَةِ، وَأَمَّا الْغَيْرَةُ الَّتِي يُبْغِضُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ فَالْغَيْرَةُ فِي غَيْرِ رِيبَةٍ ...**»[4]، وقال الشوكاني رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالغَيرة في الريبة: نحو أنْ يغارَ الرجل علىٰ محارمه إذا رأىٰ منهم فعلًا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب الغيرة، برقم (٥٢٢٠).
(٢) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ١٨٦).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب غيرة الله تَعَالَىٰ وتحريم الفواحش، برقم (٢٧٦١).
(٤) أخرجه النسائي في سننه، كتاب الزكاة، باب الاختيال في الصدقة، برقم (٢٥٥٧)، وحسنه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٢٢١).

محرَّمًا، فإنَّ الغيرةَ في ذلك ونحوِه مما يحبه الله»[١].

ومما يعين على تحقيق الغيرة ما يأتي:

أولًا: استحضار أنَّ الغيرةَ صفةٌ لله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وهي إحدى صفات الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وصفات المتَّقين الصالحين، قَالَ سَعْدُ بْنُ عُبَادَةَ: «لَوْ رَأَيْتُ رَجُلًا مَعَ امْرَأَتِي لَضَرَبْتُهُ بِالسَّيْفِ غَيْرَ مُصْفِحٍ»، فَبَلَغَ ذَلِكَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «**تَعْجَبُونَ مِنْ غَيْرَةِ سَعْدٍ، وَاللهِ لَأَنَا أَغْيَرُ مِنْهُ، وَاللهُ أَغْيَرُ مِنِّي**»[٢]، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «**بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ إِذْ رَأَيْتُنِي فِي الْجَنَّةِ، فَإِذَا امْرَأَةٌ تَوَضَّأُ إِلَى جَانِبِ قَصْرٍ، فَقُلْتُ: لِمَنْ هَذَا؟ فَقَالُوا: لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، فَذَكَرْتُ غَيْرَةَ عُمَرَ فَوَلَّيْتُ مُدْبِرًا**». قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ: فَبَكَى عُمَرُ وَنَحْنُ جَمِيعًا فِي ذَلِكَ الْمَجْلِسِ مَعَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثُمَّ قَالَ عُمَرُ: بِأَبِي أَنْتَ يَا رَسُولَ اللهِ، أَعَلَيْكَ أَغَارُ؟!»[٣]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالغيورُ قد وافقَ ربَّه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى في صفة من صفاته، ومَن وافق اللهَ في صفة من صفاته قادته تلك الصفةُ إليه بزمامه، وأدخلته على ربِّه، وأدنته منه، وقرَّبته من رحمته، وصيَّرته محبوبًا له، فإنه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى رحيمٌ يحب الرُحماءَ، كريم يحب الكُرماء، عليم يحب العلماء ...»[٤].

ثانيًا: البعد عن الذنوب والمعاصي، فإنَّ مِن آثارها السيئة إذهابَ الغيرة

---

(١) ينظر: نيل الأوطار، للشوكاني، (م ٧/ ص ٢٨٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول النبي: لا شخص أغير من الله، (٧٤١٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللعان، برقم (١٤٩٩).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٣٩٥).
(٤) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ١٦٦).

من القلب، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «من عقوبات الذنوب أنها تطفئ من القلب نارَ الغيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن، فالغَيرة حرارتُه ونارُه التي تُخرِج ما فيه من الخبث والصفات المذمومة، كما يُخرِج الكيرُ خبثَ الذهب والفضة والحديد»(١).

ثالثًا: الحرص على الحياء، فكلما زاد الحياءُ زادت الغيرة، وضِدُّ ذلك صحيح: كلما قلَّ الحياءُ ضعفت الغيرة، عَنْ أَبِي مَسْعُودٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النُّبُوَّةِ الْأُولَىٰ إِذَا لَمْ تَسْتَحِ فَاصْنَعْ مَا شِئْتَ**»(٢)، يقول ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وبين الذنوب وقلة الحياء وعدم الغيرة ملازَمةٌ أكيدةٌ من الطرفين، وكل منهما يَستدعي الآخرَ، ويطلبه طلبًا حثيثًا»(٣).

والمنزلة الثانية هي منزلة الحياء، وهي من أعظم شُعَب الإيمان، وأُسُس الدِّين، وقد ذُكر عند عمر بن عبد العزيز رَحِمَهُ ٱللَّهُ الحياءُ، وأنَّه من الدِّين، فقال: «بل هو الدين كلُّه»(٤)، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خُلُقُ الحياء من أفضل الأخلاق وأجلِّها وأعظمِها قدْرًا وأكثرِها نفعًا، بل هو خاصة الإنسانية، فَمَن لا حياءَ فيه، فليس معه من الإنسانية إلا اللحم والدَّمُ وصورتهما الظاهرة، كما أنه ليس معه من الخير شيء»(٥).

والحياء لغةً: مصدر قولهم حَيِيَ التي تدل على الاستحياء الذي هو ضدُّ

---

(١) ينظر: المصدر السابق، (ص ١٦٣).
(٢) أخرجه أبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب في الحياء، برقم (٤٧٩٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٦٨٤).
(٣) ينظر: روضة المحبين، لابن القيم، (ص ٣٦٠).
(٤) ينظر: مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا، (ص ٨٧).
(٥) ينظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (م ١ / ص ٢٧٧).



الوقاحة، يقال: حيي منه حياء، واستحيا واستحىٰ، وهو الانقباض والانزواء[١].

والحياء اصطلاحًا: خلُقٌ يَبعث علىٰ فعل الحَسَن وترك القبيح[٢]، ويقابله البذَاء والجفاء، فالحياء باعثٌ لترك القبائح كالذنوب، والتقصير في الحقوق التي جاء فيها الوعيد للمخالف. والعُرف إذا وافق الشرعَ فإنه معتبَر، وإنْ خالفه فهو فاسد غير معتبر[٣]، فمِن الحياء تركُ ما يخالِف المروءةَ ويقدح في الحياء في عُرْفِ الناس.

والفرق بين الحياء والخجل أنَّ: «الخجل: معنىٰ يَظهر في الوجه لغمٍّ يَلحق القلبَ، عند ذهاب حجَّةٍ، أو ظهورٍ علىٰ ريبة، وما أشبه ذلك، فهو شيء تتغيَّر به الهيبة.

والحَيَاء: هو الارتداع بقوَّة الحَيَاء، ولهذا يُقَال: فلانٌ يستحي في هذه الحالِ أنْ يفعل كذا، ولا يقال: يَخجل أنْ يفعلَه في هذه الحال؛ لأنَّ هيئته لا تتغيَّر منه قبل أنْ يفعله، فالخَجَل ممَّا كان، والحَيَاء ممَّا يكون.

وقد يُسْتَعمل الحَيَاءُ موضع الخَجَل توسُّعًا»[٤].

وللحياء ثمرات يانعة، وآثار نافعة، منها ما يأتي:

أولًا: الحياء من الصفات التي يحبها اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وما يحبه اللهُ له شأنٌ

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٢٩٠)، (ح ي ي)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٤/ ص ٢١٧)، (ح ي ي)، والمصباح المنير، للفيومي، (م ١ / ص ١٦٠)، (ح ي ي).

(٢) ينظر: الآداب الشرعية، لابن مفلح، (م ٢ / ص ٢٢٧)، ورياض الصالحين، للنووي، (ص ٢٧٢).

(٣) ينظر: الموافقات، للشاطبي، (م ٢ / ٤٩٥)، ومجموعة الرسائل، لابن عابدين، (م ٢ / ص ١١٥).

(٤) ينظر: الفروق اللغوية، للعسكري، (ص ٢٤٤).



ومنزلة، فعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِلْأَشَجِّ الْعَصَرِيِّ: «**إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللهُ: الْحِلْمَ، وَالْحَيَاءَ**»(١).

ثانيًا: الحياء علامة الإيمان، وشُعْبَةٌ من شعب الإيمان، مقترن به، وقد «مَرَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَىٰ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ وَهُوَ يَعِظُ أَخَاهُ فِي الْحَيَاءِ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**دَعْهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ**»(٢). قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الإيمان بضع وستون شعبة، فأفضلُها قولُ: لا إله إلا الله، وأدناها إماطةُ الأذىٰ عن الطريق، والحياءُ شعبةٌ من الإيمان**»(٣)، وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْحَيَاءُ وَالْإِيمَانُ قُرِنَا جَمِيعًا، فَإِذَا رُفِعَ أَحَدُهُمَا رُفِعَ الْآخَرُ**»(٤)، وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَذَاءُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ**»(٥).

ثالثًا: الحياءُ رأسُ الأخلاق في الإسلام، فالأخلاق كثيرة، لكنَّ خُلُقَ الإسلام الحياءُ الذي يجمع في طياته كثيرًا من الأخلاق الفاضلة، وبه تُزيَّن الأمورُ، ويَحصل به الخيرُ كلُّه، فعَنْ أَنَسٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب الحلم، برقم (٤١٨٨)، وصححه الألباني في صحيح الأدب المفرد، برقم (٥٨٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، برقم (٢٤)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٣٦).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، برقم (٩)، ومسلم في صحيحه واللفظ له، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٣٥).

(٤) أخرجه الحاكم في المستدرك،كتاب الإيمان، إذا زنىٰ العبد خرج منه الإيمان، برقم (٥٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٦٠٣).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في الحياء، برقم (٢٠٠٩)، وابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب الحياء، برقم (٤١٨٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٤٩٥).

«**إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا، وَخُلُقُ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ**»(١)، وعَنْ أَنَسٍ أيضًا أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا شَانَهُ، وَلا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ قَطُّ إِلَّا زَانَهُ**»(٢)، وقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**الْحَيَاءُ لا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ**»(٣).

ومما يبلِّغ الإنسانَ تحقيقَ الحياء ما يأتي:

أولًا: استحضار الحياء من الله، ثم الحياء من الملائكة، ورؤيتِهم له، فإنَّ ذلك معينٌ على ترك ما لا يليق بالعبد، قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**اسْتَحْيُوا مِنَ اللهِ حَقَّ الْحَيَاءِ**»(٤)، وقال: «**فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ**»(٥)، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَى عن الملائكة: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وفي قصة دخول عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ على النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: فَقَالَ: «**أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ**»(٦).

ثانيًا: مجالسة أهلِ الحياء، فالإنسان يتأثَّر بمَن يُجالِس، ومجالسة أهل

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب الحياء، برقم (٤١٨١)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٤٠).
(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب الحياء، برقم (٤١٨٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٥٦٥٥).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب الحياء، برقم (٦١١٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، برقم (٣٧).
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٢٦٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٧٢٤).
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الأدب عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في حفظ العورة، برقم (٢٧٦٩)، وابن ماجه في سننه، أبواب النكاح، باب التستر عند الجماع، برقم (١٩٢٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٠٣).
(٦) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، برقم (٢٤٠١).

الحياء سببٌ لتنمية خُلُقِ الحياء عند المرء وزيادته، فعَنْ سَعِيدِ بْنِ يَزِيدَ الْأَزْدِيِّ، أَنَّهُ قَالَ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَوْصِنِي، قَالَ: «**أُوصِيكَ أَنْ تَسْتَحْيِيَ مِنَ اللهِ** عَزَّ وَجَلَّ، **كَمَا تَسْتَحْيِي مِنَ الرَّجُلِ الصَّالِحِ مِنْ قَوْمِكَ**»[1]. قال بعض السلف: «أحيوا الحياءَ بمجالَسَة من يُستَحْيَا منه»[2]، وقال مجاهد رَحِمَهُ اللهُ: «إنَّ المسلمَ لو لم يُصِب من أخيه إلا أنَّ حياءَه منه يمنعه من المعاصي؛ لكفاه»[3].

ثالثا: النظر في سِيَر المرسلين، وصفات المتَّقين، وكيف كان الحياءُ حاضرًا في حياتهم، ففي صفةِ نبينا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول أبو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا»[4]، وعن حياء موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول أبو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ مُوسَىٰ كَانَ رَجُلًا حَيِيًّا سِتِّيرًا لا يُرَىٰ مِنْ جِلْدِهِ شَيْءٌ اسْتِحْيَاءً مِنْهُ**..»[5]، وجاء في قصة ابنة صاحبِ مدينَ مع موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: ٢٥]، ومضىٰ معنا وصفُ عثمان رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بالحياء، وعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: «كُنْتُ رَجُلًا مَذَّاءً، وَكُنْتُ أَسْتَحْيِي أَنْ أَسْأَلَ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِمَكَانِ ابْنَتِهِ، فَأَمَرْتُ الْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْوَدِ فَسَأَلَهُ، فقَالَ: «**يَغْسِلُ**

---

(١) أخرجه الطبراني في معجمه، باب السين، من اسمه سعيد، سعيد بن يزيد الأزدي، برقم (٥٥٣٩)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٢٥٤١).

(٢) ينظر: الشعب، للبيهقي، (برقم ٨٦٦٢).

(٣) ينظر: مكارم الأخلاق، لابن أبي الدنيا، (ص ٩٦).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المناقب، باب صفة النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (٣٥٦٢)، ومسلم في صحيحه، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (٢٣٢٠).

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حدثني إسحاق بن نصر، برقم (٣٤٠٤).

ذَكَرَهُ وَيَتَوَضَّأُ»»[١]، وفي الصحيح عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ قَالَتْ: جَاءَتْ أُمُّ سُلَيْمٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ، فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ اللهَ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ، فَهَلْ عَلَىٰ الْمَرْأَةِ مِنْ غُسْلٍ إِذَا احْتَلَمَتْ؟ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «**إِذَا رَأَتِ الْمَاءَ**». فَغَطَّتْ أُمُّ سَلَمَةَ، تَعْنِي وَجْهَهَا، وَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللهِ، وَتَحْتَلِمُ الْمَرْأَةُ؟ قَالَ: «**نَعَمْ، تَرِبَتْ يَمِينُكِ، فَبِمَ يُشْبِهُهَا وَلَدُهَا**»[٢]؛ غطَّت أمُّ سلمة وجهها من الحياء، والأعجبُ حياءً أمُّ المؤمنين عائشةُ رضي الله عنها من عمر رضي الله عنه وهو ميت، قَالَتْ رضي الله عنها: «كُنْتُ أَدْخُلُ بَيْتِي الَّذِي فِيهِ رَسُولُ اللهِ ﷺ وَأَبِي، فَأَضَعُ ثَوْبِي وَأَقُولُ: إِنَّمَا هُوَ زَوْجِي وَأَبِي، فَلَمَّا دُفِنَ عُمَرُ مَعَهُمْ فَوَاللهِ مَا دَخَلْتُهُ إِلَّا وَأَنَا مَشْدُودَةٌ عَلَيَّ ثِيَابِي حَيَاءً مِنْ عُمَرَ رضي الله عنه»[٣].

📖📖📖

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب العلم، باب من استحيا فأمر غيره بالسؤال، برقم (١٣٢)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له، كتاب الحيض، باب المذي، برقم (٣٠٣).
(٢) أخرجه البخاري، كتاب العلم، باب الحياء في العلم، برقم (١٣٠).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده، مسند عائشة رضي الله عنها، برقم (٢٦٢٤٦)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح، برقم (١٧٧١).



قُلِ: اليقينُ قوَّةُ الإيمانِ تواضعٌ وسَكَنُ الجنانِ

أشار الناظم في هذا البيت إلىٰ منزلة اليقين، واليقين من صميم الإيمان، والمحرِّكُ للخير والجَنَان، وزادُ السائر، وعُدَّة المسافِر، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الْيَقِينُ الْإِيمَانُ كُلُّهُ»(١)، وقال الحسنُ البصريُّ رَحِمَهُ اللهُ: «باليقين طُلبتِ الجنةُ، وباليقين هُرِبَ من النار، وباليقين أُدِّيَت الفرائضُ، وباليقين صُبِر علىٰ الحقِّ»(٢). يقول ابنُ القيم رَحِمَهُ اللهُ: «اليقينُ والمحبة هما ركنا الإيمان، وعليهما يَنبني، وبهما قوامُه، وهما يَمدان سائرَ الأعمال، وبقوتهما قوتُها، وجميعُ منازل السائرين إنما تُفتح بهما، وهما يُثمران كلَّ عملٍ صالحٍ، وعلمٍ نافعٍ، وهَدْيٍ مستقيم»(٣).

واليقين في اللغة: العلم، وإزاحة الشك، وتحقيق الأمر، واليقين نقيضُ الشكِّ، والعلم نقيض الجهل، تقول عَلِمْتُه يقينًا(٤).

واليقين اصطلاحًا: سكون الفهم مع ثبات الحُكْم(٥)، بمعنىٰ قوةِ الاعتقادِ واستقراره ورسوخِه، مع الطمأنينةِ والسكونِ لما يَعْتقدُه، حتىٰ يصيرَ رسوخُه

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا موقوفًا، كتاب الإيمان، باب الإيمان، (م١ / ص ١٥٠)، وصححه ابن حجر في الفتح، (م١ / ص ٦٣).

(٢) ينظر: الزهد، لابن المبارك، (برقم ٥٥٨)، والزهد، لأحمد، واللفظ له، (برقم ١٦١٧)، واليقين، لابن أبي الدنيا، (ص ١٣).

(٣) ينظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٧٧).

(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١١١٠)، (ي ق ن)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٥ / ص ٤٥٤)، (ي ق ن).

(٥) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ٥ / ص ٥٧٠)، ومفردات ألفاظ القرآن، للراغب، (ص ٥٥٢).

في الغيب كرسوخِه في الشهادة، ومتىٰ ما بلغ القلبُ هذه الرتبةَ وصل إلىٰ أعلىٰ الدرجات.

واليقين أعلىٰ درجات الإدراك(١) وأكملها، والفرق بينه وبين العلم أنَّ العلمَ تُعارِضه الشكوكُ، واليقين لا شكَّ فيه(٢)، أي اليقين رسوخٌ لا يقبل الشكَّ، بخلاف العلمِ؛ فقد يَضعُف في القلب، وتعتريه بعضُ الشكوك.

ولليقين العديد من الثمار، وجميل الآثار، والتي منها:

أولًا: اليقين سببُ الفلاح في الدارين، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [البقرة: ٤، ٥]، وجاء في الحديث: «قَامَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ بَكَىٰ، فَقَالَ: قَامَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَامَ الْأَوَّلِ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ، ثُمَّ بَكَىٰ، فَقَالَ: «**اسْأَلُوا اللهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ، فَإِنَّ أَحَدًا لَمْ يُعْطَ بَعْدَ الْيَقِينِ خَيْرًا مِنَ الْعَافِيَةِ**»»(٣)، يقول ابنُ القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا يَتِمُّ صلاحُ العبد في الدارين إلا باليقينِ والعافيةِ، فاليقينُ يدفع عنه عقوباتِ الآخرة، والعافية تدفع عنه أمراضَ الدنيا من قلبِه وبدنِه»(٤).

ثانيًا: اليقين يورِث الانتفاعَ بالآيات، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هَذَا بَصَائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [الجاثية: ٢٠]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ٧٢١).
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٣٩٨).
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٣٩١٥)، وابن ماجه في سننه، أبواب الدعاء، باب الدعاء بالعفو والعافية، برقم (٣٩٦٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٣٣٨٧).
(٤) ينظر: زاد المعاد، لابن القيم، (م ٤ / ص ١٩٧).



[الذاريات: ٢٠]. يقول القرطبي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والموقنون: هم العارفون المحقِّقُون وحدانيةَ ربِّهم، وصدقَ نبوّةِ نبيِّهم، خصَّهم بالذكر؛ لأنهم المنتفِعون بتلك الآياتِ وتدبُّرِها»[1].

ثالثًا: اليقين من أسباب تحقيق الإمامة في الدين، كما قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]. يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الصبر واليقين بهما تُنال الإمامةُ في الدين»[2]، والجمع بين الصبر واليقين له دلالةٌ دقيقةٌ، وهو أنَّ اليقينَ هو الذي يوصِل إلىٰ الصبر، فالصبر لا يَتَحقق مع جَزَع القلب وقلقِه. يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا يُمكن للعبد أنْ يصبر إنْ لم يكن له ما يَطمَئنُّ له، ويَتنعَّم به، ويَغتذِي به، وهو اليقين»[3]، ويقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وعلىٰ حسب يقينِ العبد بالمشروع، يكون صبرُه علىٰ المقدور»[4].

رابعًا: اليقين يورِث التوكّلَ علىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، فكلّما كان المرءُ أكثرَ يقينًا كان أكثرَ توكُّلًا، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّكَ عَلَى الْحَقِّ الْمُبِينِ﴾ [النمل: ٧٩]، والحق المبين هو اليقين هنا[5]، يقول الحسنُ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا بنَ آدم، إنَّ مِن ضَعْف يقينِك أنْ تكون بما في يدك أوثقَ بما في يد الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»[6]، ويقول مسروقٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ أحسنَ ما أكون ظنًّا لَحين يقول الخادم: ليس في البيت قفيزٌ من قمح، ولا درهم»[7].

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (م ١٩ / ص ٤٨٤).
(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ٣ / ص ٣٥٨).
(٣) ينظر: الاستقامة، لابن تيمية، (م ٢ / ص ٢٦١).
(٤) ينظر: التبيان في أقسام القرآن، لابن القيم، (ص ١٣٧).
(٥) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٣٩٨).
(٦) ينظر: اليقين، لابن أبي الدنيا، (ص ٣٤).
(٧) ينظر: الزهد، لهناد السري، برقم (٥٩٢).



خامسًا: اليقين سببٌ لدخول الجنة، وقد قال ﷺ لأبي هريرة رضي الله عنه: «**يَا أَبَا هُرَيْرَةَ**»، وَأَعْطَانِي نَعْلَيْهِ، قَالَ: «**اذْهَبْ بِنَعْلَيَّ هَاتَيْنِ، فَمَنْ لَقِيتَ مِنْ وَرَاءِ هَذَا الْحَائِطِ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ مُسْتَيْقِنًا بِهَا قَلْبُهُ؛ فَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ**»[١]، قال النووي رحمه الله: «معناه: أَخْبرهم أنَّ مَنْ كانت هذه صفتَهُ فهو مِن أهل الجنة، وإلا فأبو هريرةَ لا يعلمُ استيقانَ قلوبِهم»[٢].

وممّا يوصل العبد لتحقيق اليقين في حياته ما يأتي:

أولًا: الحرص على العلم المُوصل إلى اليقين، فكلما ازداد المرء علمًا نافِعًا من الكتاب والسنة ازداد يقينًا، قال ابن تيمية رحمه الله: «واليقين قد يكون بالعمل والطمأنينةِ، كما يكون بالعلم»[٣].

ثانيًا: الدعاء وسؤال اللهِ اليقينَ، ومن الدعوات التي كان النبيُّ ﷺ يُكثر منها في مجالِسِهِ كما يقول ابن عمر رضي الله عنهما: «قَلَّمَا كَانَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَقُومُ مِنْ مَجْلِسٍ حَتَّى يَدْعُوَ بِهَؤُلَاءِ الدَّعَوَاتِ لِأَصْحَابِهِ: «**اللَّهُمَّ اقْسِمْ لَنَا مِنْ خَشْيَتِكَ مَا يَحُولُ بَيْنَنَا وَبَيْنَ مَعَاصِيكَ، وَمِنْ طَاعَتِكَ مَا تُبَلِّغُنَا بِهِ جَنَّتَكَ، وَمِنَ الْيَقِينِ مَا تُهَوِّنُ بِهِ عَلَيْنَا مُصِيبَاتِ الدُّنْيَا...**»»[٤].

ثالثًا: معرفة أنَّ اليقين مفتاحٌ لكثير من الأعمالِ القلبية، فمتى ما وُجِد اليقينُ سهُلت بقيةُ المنازل والمقامات، يقول ابنُ القيم رحمه الله: «ومتى وصل

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه؛ دخل الجنة، وحرم على النار، برقم (٣١).
(٢) ينظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، (م ١ / ص ٢٣٧).
(٣) ينظر: الإيمان، لابن تيمية، (ص ٢١٦).
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب، برقم (٣٥٠٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (١٢٧٩).

اليقينُ إلىٰ القلب امتلأ نورًا وإشراقًا، وانتفىٰ عنه كلُّ ريبٍ وشكٍّ وسخطٍ، وهمٍّ وغمٍّ، فامتلأ محبةً لله، وخوفًا منه ورضًا به، وشكرًا له، وتوكلًا عليه، وإنابةً إليه، فهو مادةُ جميعِ المقامات والحاملُ لها»[1]. وقال ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فَمَن حقَّق اليقينَ، وثق بالله في أمورِه كلِّها، ورضي بتدبيرِه له، وانقطع عن التعلُّقِ بالمخلوقين رجاءً وخوفًا»[2].

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٤١٣).
(٢) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (م ٢ / ص ١٨).

والتوبةُ الإقلاعُ عن ذنوبِ	ونَدَمٌ علىٰ اقترافِ حَوْبِ
والعزمُ ألّا للذنوبِ يَرْجِعَا	كذاكَ إنْ كانت حقوقًا أَرْجَعَا

يذكـر الناظـم في هذيـن البيتيـن منزلـةَ التوبـة، وهـي المنزلـة التـي يحتاجهـا المرءُ في بداية السَّير، وفي تجديد السَّير، بل يحتاجها في كل يوم، قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**وَاللهِ إِنِّي لَأَسْتَغْفِرُ اللهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ فِي الْيَوْمِ أَكْثَرَ مِنْ سَبْعِينَ مَرَّةً**»[١]، وقـال طلـق بـن حبيـب رَحِمَهُ اللَّهُ: «إن حقوقَ الله أعظمُ من أنْ يقوم بها العبادُ، وإنَّ نِعَمَ الله أكثرُ من أنْ تُحصىٰ، ولكنْ أصبحوا تائبين، وأمسوا تائبين»[٢].

والتوبة في اللغة: مِن: تاب يتوب، بمعنىٰ الرجوع والعودة، يقال: تاب مِن ذنبه، أي: رَجَعَ وعادَ[٣].

وأما التوبة في الاصطلاح: فهِي تَرْك الذنب علمًا بقُبحه، والندمُ علىٰ فعله، والعزمُ علىٰ عدم المعاودةِ وتداركُ ما أمكَنَه أنْ يتدارك من الأعمال بالإعادة[٤]، وهذا التعريف يَنتظم شروطَ التوبة المعروفة.

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: «قال العلماء التوبةُ واجبةٌ من كل ذنب، فإنْ كانت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في اليوم والليلة، برقم (٦٣٠٧).
(٢) ينظر: السير، للذهبي، (م ٤ / ص ٦٢٢).
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١٧٤)، (ت و ب)، وتهذيب اللغة، للأزهري، (م ٤ / ص ٣)، (ت و ب).
(٤) ينظر: المفردات، للراغب، (ص ٧٤).



المعصية بين العبد وبين الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ لا تتعلق بحق آدمي فلها ثلاثةُ شروط: **أحدُها**: أنْ يُقلع عن المعصية، **والثاني**: الندمُ علىٰ فعلها، **والثالث**: أنْ يعزم ألَّا يعود إليها أبدًا، فإنْ فُقِدَ أحدُ الثلاثة لم تصحَّ توبتُه، وإنْ كانت المعصيةُ تتعلق بآدميٍّ فشروطها أربعة: هذه الثلاثة، وأنْ يَبْرَأَ مِن حقِّ صاحبها ...»[1].

وأكملُ درجات التوبة هي التوبةُ النَّصوحُ، «ونصح التوبة: الصدق فيها، والإخلاصُ، وتعميمُ الذنوب بها»[2]، والإنابةُ أخصُّ من التوبة، وتأتي بعد استقرارِ القدمِ في التوبة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَن نزل في منزلة التوبة، وقام في مقامِها؛ نزل في جميع منازِل الإسلام، فإذا استقرت قدمُه في منزل التوبة نزل بعدَه في منزل الإنابة»[3].

وأما ثمرات التوبة فهي كثيرة جليلة، ومتعددة كريمة، منها:

أولًا: محبةُ الله للتائبين، وفرحُه بتوبتِهم، وهذا يدلُّ علىٰ عظمة هذه المنزلةِ، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾ [البقرة: ٢٢٢]، وقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لَلَّهُ أَفْرَحُ بِتَوْبَةِ عَبْدِهِ مِنْ رَجُلٍ نَزَلَ مَنْزِلًا وَبِهِ مَهْلَكَةٌ، وَمَعَهُ رَاحِلَتُهُ عَلَيْهَا طَعَامُهُ وَشَرَابُهُ، فَوَضَعَ رَأْسَهُ فَنَامَ نَوْمَةً فَاسْتَيْقَظَ وَقَدْ ذَهَبَتْ رَاحِلَتُهُ، حَتَّىٰ اشْتَدَّ عَلَيْهِ الْحَرُّ وَالْعَطَشُ، أَوْ مَا شَاءَ اللهُ، قَالَ: أَرْجِعُ إِلَىٰ مَكَانِي، فَرَجَعَ فَنَامَ نَوْمَةً ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ، فَإِذَا رَاحِلَتُهُ عِنْدَهُ**»[4]، قال يحيىٰ بن معاذ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «للتائب فخرٌ لا يعادله فخرٌ في جميع أفخاره: فرحُ

---

(١) ينظر: رياض الصالحين، للنووي، (ص ٤٧).
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٣١٠).
(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ٤٤٦).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الدعوات، باب التوبة، برقم (٦٣٠٨)، ومسلم في صحيحه، كتاب التوبة، باب فِي الحضّ علىٰ التوبة والفرح بها، برقم (٢٦٧٥).



الله بتوبتـه»[1].

ثانيًا: التوبـة سـببُ السـعادة والفـلاحِ، فالسـعادةُ كلُّ السـعادة في العـودة إلىٰ الله والفـرارِ إليـه، والضنـكُ والشـقاءُ في البُعـد عـن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، قـال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتُوبُـوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًـا أَيُّـهَ الْمُؤْمِنُـونَ لَعَلَّكُـمْ تُفْلِحُـونَ﴾ [النـور: ٣١]، فعلَّق الله الفـلاحَ علىٰ حصـولِ التوبـة وتحقُّقِهـا.

ثالثًا: التوبـة سـبب لتبديـل السـيئات إلىٰ حسـنات، فـالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ مـن كرَمِـه وجـودِه وفضلِـه يدعـوك للتوبـة، ويكافئـك بتبديـل السـيئاتِ إلىٰ حسـناتٍ، قـال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِلَّا مَـنْ تَـابَ وَآمَـنَ وَعَمِـلَ عَمَـلًا صَالِحًـا فَأُولَئِـكَ يُبَـدِّلُ اللَّهُ سَـيِّئَاتِهِمْ حَسَـنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُـورًا رَحِيمًـا﴾ [الفرقـان: ٧٠].

رابعًـا: التوبـة سـببٌ لتطهير القلـب وصَقْلِـه، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُـولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَـالَ: «**إِنَّ الْمُؤْمِـنَ إِذَا أَذْنَـبَ كَانَـتْ نُكْتَـةٌ سَـوْدَاءُ فِـي قَلْبِـهِ، فَإِنْ تَـابَ وَنَـزَعَ وَاسْـتَغْفَرَ صُقِـلَ قَلْبُـهُ، فَـإِنْ زَادَ زَادَتْ، فَذَلِـكَ الـرَّانُ الَّـذِي ذَكَـرَهُ اللهُ فِـي كِتَابِـهِ**: ﴿كَلَّا بَـلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِـمْ مَـا كَانُـوا يَكْسِـبُونَ﴾ [المطففيـن: ١٤]»[2]، قـال المباركفـوري رَحِمَهُ اللَّهُ: «صَقَـلَ، بالصـاد، والمعنـىٰ: نظَّـف وصفَّـىٰ مـرآةَ قلبـه؛ لأنَّ التوبـة بمنزلـة المصقِّلـة تمحـو وسـخَ القلـب وسـوادَه»[3].

خامسًـا: التوبـة سـبب للـبركات والخيـرات والأرزاق ورغَـدِ العيـش، قـال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأَنِ اسْـتَغْفِرُوا رَبَّكُـمْ ثُـمَّ تُوبُـوا إِلَيْـهِ يُمَتِّعْكُـمْ مَتَـاعًا حَسَـنًا إِلَى أَجَـلٍ مُسَـمًّى وَيُـؤْتِ كُلَّ ذِي فَضْـلٍ فَضْلَـهُ﴾ [هـود: ٣]، وقـال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَيَاقَـوْمِ

---

(١) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ١٠ / ص ٥٩).
(٢) أخرجـه ابـن ماجـه في سـننه، أبـواب الزهـد، بـاب ذكـر الذنـوب، برقـم (٤٢٤٤)، وحسـنه الألبـاني في صحيـح الجامـع، برقـم (١٦٧٠).
(٣) ينظر: تحفة الأحوذي، للمباركفوري، (م ٨ / ص ٣٤٥).



اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَى قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾ [هود: ٥٢].

ومما يوصل الإنسان إلىٰ منزلة التوبة، ويعينه علىٰ تحقيقها ما يأتي:

أولًا: تدبُّر القرآن، والنظرُ في آيات الوعدِ والوعيدِ، يقول القرطبيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الباعثُ علىٰ التوبة وحلِّ الإصرار؛ إدامةُ الفكر في كتاب الله العزيزِ الغفارِ، وما ذكره اللهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من تفاصيل الجنة، ووعدَ به المطيعين، وما وصفَه من عذاب النار، وتهدَّد به العاصين، ودام علىٰ ذلك حتىٰ قوِيَ خوفُه ورجاؤُه، فدعا ربَّه رغبًا ورهبًا»(١).

ثانيًا: محاسبةُ النفس، فلا يزال العبدُ يحاسب نفسَه ويعاتبها حتىٰ تَصيرَ إلىٰ منزلةِ التوبة، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن منزلة المحاسَبة: «فإذا صحَّ هذا المقامُ، ونزل العبدُ في هذه المنزلةِ، أشرف منها علىٰ مقامِ التوبة؛ لأنه بالمحاسبة قد تميَّز عنده ما له وما عليه، فلْيجمع همتَه وعزمَه علىٰ النزول فيه، والتشميرِ إليه إلىٰ الممات»(٢).

ثالثًا: تذكُّرُ نعمِ الله، كيف يُنعِم الله عليك بالنعم التي لا تُحصىٰ ثم تجعل هذه النعمَ في معصيةِ الله، فهل يقابَل الإحسانُ بالكفران؟! فيتفكر المرءُ في كل جارحةٍ يعصي بها ويسأل نفسَه: أهكذا أشكر ربي علىٰ هذه النعمةِ؟! فإن ذلك يورِث الندمَ والرجوعَ.

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، للقرطبي، (م ٥ / ص ٣٢٦).
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ١٦٩).



إنابةٌ قلْ سرعةُ الرُّجوعِ إلىٰ الهدىٰ والخيرِ بالخضوعِ

ختم الناظم أعمال القلوب بمنزلة الإنابة، وهي من المنازل العالية، والمقامات السامية.

والإنابة في اللغة من: نَوَبَ التي تدل علىٰ اعتياد المكان والرجوعِ إليه، يقال: أناب فلانٌ إلىٰ الشيء، أي: رَجَعَ إليه مرةً بعد أخرىٰ[1].

والإنابة اصطلاحًا: الإسراعُ إلىٰ مرضاة الله مع الرجوعِ إليه في كل وقتٍ، وإخلاصِ العملِ له[2]، ومحبتِه والخضوعِ له، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالإنابة: الرجوعُ إلىٰ الله، وانصرافُ دواعي القلبِ وجواذبِه إليه، وهي تتضمَّن المحبةَ والخشيةَ، فإنَّ المنيبَ محبٌّ لِمَن أناب، خاضعٌ له، خاشعٌ ذليلٌ»[3]، وقال أيضًا: «وهي تتضمنُ أربعةَ أمور: محبتَه، والخضوعَ له، والإقبالَ عليه، والإعراضَ عما سواه»[4].

وأما ثمرات هذه المنزلة، وفضائل هذه المرتبة، فهي علىٰ النحو الآتي:

أولًا: جزاء المنيب جنّاتُ النعيم، فمن كان رجَّاعا إلىٰ الله في كل حينٍ وثائبًا إليه، مع محبةٍ وخشيةٍ وتعظيمٍ وخضوعٍ؛ كان موعودًا بالجنةِ دارِ الخلود، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١٠٠٢)، (ن و ب)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١ / ص ٧٧٤)، (ن و ب).
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٦٧).
(٣) ينظر: طريق الهجرتين، لابن القيم، (م ١ / ص ٣٧٣).
(٤) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٦٧).

أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ [ق: ٣١ - ٣٤].

ثانيًا: الإنابة طريقُ الهداية، فمَن أنابَ إلىٰ الله آواه وهداه واجتباه وسدَّده، بفضله وكرمه ومنِّه ورحمته، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ [الرعد: ٢٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

ثالثًا: أهلُ الإنابة هم أهلُ التذكُّرِ والانتفاعِ بالذكرِ، ينتفعون بالبراهين والآياتِ، ويتأثرون بالتخويفِ والعِظَاتِ، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ﴾ [غافر: ١٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [سبأ: ٩].

وأما سبل بلوغ هذه المنزلة وتحقيقها فتتمثل فيٰ الآتيٰ:

أولًا: التفكر في خلقِ اللهِ والنظرُ في آياته وآلائه، وعجيبِ لطفِه، وهذا يقود إلىٰ سرعةِ الإذعانِ والإنابةِ، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٦﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٧﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٦ - ٨].

ثانيًا: المداومة علىٰ ذكر الله والإكثارُ منه، ففي الذكر طمأنينةُ القلب، وراحةُ النفس، وسكينةُ الرُّوح، فمتىٰ ما امتلأ القلبُ بمعاني الذكر أكثرَ المرءُ الرجوعَ والإنابةَ، وممَّا ذكرَهُ ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في فوائد الذِّكر: «أنَّه يورِث الإنابةَ، وهو الرجوع إلىٰ الله عَزَّوَجَلَّ، فمتىٰ أكثرَ الرجوعَ إليه بذكره أوْرَثَه ذلك



رجوعَه بقلبِه إليه في كلِّ أحوالِه، فيبقىٰ اللهُ عزَّ وجلَّ مفزعَه وملجأَه، وملاذَه ومعاذَه، وقبلةَ قلبِه عند النوازلِ والبلايا»[١].

ثالثًا: سؤال الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنْ يرزقك الإنابةَ، والتوبةَ والرجوعَ إليه، بل إنَّ جميع المنازلِ تُطلَب من الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ. ومِن أجمعِ الدعوات في ذلك ما جاء في السننِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَدْعُو يَقُولُ: «**رَبِّ أَعِنِّي وَلَا تُعِنْ عَلَيَّ، وَانْصُرْنِي وَلَا تَنْصُرْ عَلَيَّ، وَامْكُرْ لِي وَلَا تَمْكُرْ عَلَيَّ، وَاهْدِنِي وَيَسِّرِ الْهُدَىٰ لِي، وَانْصُرْنِي عَلَىٰ مَنْ بَغَىٰ عَلَيَّ، رَبِّ اجْعَلْنِي لَكَ شَكَّارًا، لَكَ ذَكَّارًا، لَكَ رَهَّابًا، لَكَ مِطْوَاعًا، لَكَ مُخْبِتًا، إِلَيْكَ أَوَّاهًا مُنِيبًا، رَبِّ تَقَبَّلْ تَوْبَتِي، وَاغْسِلْ حَوْبَتِي، وَأَجِبْ دَعْوَتِي، وَثَبِّتْ حُجَّتِي، وَسَدِّدْ لِسَانِي، وَاهْدِ قَلْبِي، وَاسْلُلْ سَخِيمَةَ صَدْرِي**»[٢].

(١) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (ص ٦٢).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٣٥٥١)، وأبو داود في سننه، كتاب الصلاة، باب ما يقول الرجل إذا سلم، برقم (١٥١٠)، وابن ماجه في سننه، أبواب الدعاء، باب دعاء رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، برقم (٣٨٣٠)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٣٤٨٥).

مفسدات القلوب

والمَيْلُ مفسدٌ لها فلتذكُرِ   للشركِ أو لشهوةٍ ومنكَرِ

انتقل الناظم بعد ذكر أعمالِ القلوب إلىٰ تعداد جملةٍ من مفسداتِ القلوب، فالقلبُ كما يُحلَّىٰ بالأعمال الزاكيات يُخلَّىٰ من المفسِدات، فهو دائرٌ بين التخلِية والتحلِية، «وقبول المحلِّ لما يوضع فيه مشروطٌ بتفريغه من ضدِّه»[(١)]، وتطهيرُ القلب مما يفسده مقصدٌ شرعيٌّ عظيم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: ٤]، قال سعيد بن جبير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: قلبَك فطهِّر»[(٢)]، قال ابن القيم: «وجمهور المفسرين من السلف ومَن بَعْدَهم علىٰ أنَّ المرادَ بالثياب هنا القلبُ، والمرادَ بالطهارة إصلاحُ الأخلاقِ والأعمال»[(٣)].

ولَمَّا كان القلبُ هو القائد للجوارح أجلبَ الشيطانُ عليه بالمفسدات وجعل إفسادَه الهدفَ الأولَ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولما علم عدوُّ الله إبليسُ أنَّ المدارَ علىٰ القلب والاعتمادَ عليه؛ أجلبَ عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشهوات إليه، وزيَّنَ له من الأحوالِ والأعمالِ ما يصدُّه عن الطريق، وأمدَّه من أسباب الغيِّ بما يقطعه عن أسبابِ التوفيق، ونَصَبَ له المصايدَ والحبائلَ ما إنْ سَلِمِ من الوقوع فيها لم يَسْلَم من أنْ يحصل له بها التعويقُ، فلا نجاةَ من مصايده ومكايده إلا بدوامِ الاستعانةِ بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والتعرضِ

(١) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ٤١)
(٢) ينظر: فتح القدير، للشوكاني، (م ٥ / ص ٤٣٠).
(٣) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ٨٦).

لأسبابِ مرضاتِه، والتجاءِ القلب إليه وإقبالهِ عليه في حركاته وسكناته»[١].

فصلاحُ القلوب تَعلُّقُهَا بالله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وفسادُ القلوب بتعلقها بغيرِ الله، فاجعل قلبَك خالصًا لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، واحفظْه من كل شوائبِ التعلقِ والعبوديات المنافِية لتمام التعلُّق بالله، قال ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كل مَن تعلَّق قلبُه بالمخلوقات أنْ ينصروه أو يرزقوه، أو أنْ يُهدوه، خَضَعَ قلبُه لهم، وصار فيه من العبودية لهم بقدْرِ ذلك، وإنْ كان في الظاهر أميرًا لهم، مدبِّرًا لهم، متصرِّفًا بهم، فالعاقل ينظر إلىٰ الحقائق، لا إلىٰ الظواهر»[٢].

ومن أعظم ما تُستدفعُ به المفسداتُ القلوبِ وآفاتُها، ويحصل بها صلاحُها واستقامتها أمران:

أحدهما: أنْ تكون محبةُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ تتقدم عنده علىٰ جميع المَحَابِّ، فإذا تعارَض حبُّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ وحبُّ غيره سبَقَ حبُّ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ حبَّ ما سواه، فرتَّب علىٰ ذلك مقتضاه ...

الأمر الثاني: تعظيم الأمر والنهي؛ وهو ناشئٌ عن تعظيم الآمِرِ الناهِي، فإنَّ الله ذمَّ مَن لا يعظِّمه، ولا يعظم أمرَه ونهيَه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿مَا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٣]، قالوا في تفسيرها: ما لكم لا تخافون الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عظمة»[٣].

وأمراض القلوب ومفسداتُها كثيرة، ترجِع إلىٰ نوعين: أمراضِ الشبهات، وأمراضِ الشهوات، جاءت الإشارةُ إليها في الحديث: «**إِنَّ مِمَّا أَخْشَىٰ عَلَيْكُمْ**

(١) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ٧).
(٢) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١٠ / ص ١٨٥).
(٣) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، بتصرف، (ص ١٤-١٥).

شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ، وَفُرُوجِكُمْ، وَمُضِلَّاتِ الْهَوَىٰ»(١)، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلب يعترضه مرضان يتواردان عليه إذا استحكما فيه كان هلاكه وموتُه، وهما مرضُ الشهوات، ومرضُ الشبهات، هذا أصلُ داءِ الخَلْق إلا مَن عافاه اللهُ»(٢). وأشار الناظمُ إلىٰ المفسِدات، ودعا للانتباه لها، والحَذَرِ منها، وتذَكُّرِها وعدمِ إهمالها؛ لأنَّ المفسداتِ تنخُر القلوبَ، فلا تزكو ولا تنمو مع وجودها وتغلغلِها في القلوب، بل هي من العقوبات، يقول ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ما ضُرب عبدٌ بعقوبة أعظمَ من قسوةِ القلب، والبعدِ عن الله»(٣).

وأول هذه المفسدات الشرك، وهو في اللغة مِن: أشرك به يشرِك إشراكًا، اسم للشيء الذي يكون بين أكثر مِن واحدٍ، بحيث لا ينفَرِد به أحدُهم، يقال شاركت فلانًا في الشيء، إذا صرت شريكه، وأشركتَ فلانًا إذا جعلتَه شريكًا لك، فيرجِع معناه إلىٰ المشاركَة(٤)، وأما في الاصطلاح فهو: مساواةُ غيرِ الله بالله فيما هو مِن خصائصِ الله(٥)، ويُعَرِّفه آخرون بما جاء في حديثِ ابنِ مسعودٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «قَالَ: قُلْتُ يَا رَسُولَ اللهِ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ؟ قَالَ: أَنْ تَجْعَلَ لِلهِ نِدًّا وَهُوَ خَلَقَكَ ...»(٦).

---

(١) أخرجه أحمد في مسند، مسند البصريين رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ، حديث أبي برزة الأسلمي رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٠٠٨٧)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٥٠).

(٢) ينظر: مفتاح دار السعادة، لابن القيم، (م ١ / ص ١٢١).

(٣) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٤٢).

(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٥٥٧)، (ش ر ك)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٠ / ص ٤٤٨)، (ش ر ك)، وتهذيب اللغة، للأزهري، (ش ر ك)، (م ١٠ / ص ١٦)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص ١٢٢٠)، (ش ر ك).

(٥) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١٣ / ص ١٩)، والدر النضيد، للشوكاني، (ص ١٨).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الحدود وما يحذر من الحدود، باب إثم الزناة، برقم (٦٨١١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، برقم (٨٦).

ويُقَسَّم بتقاسيمَ كثيرةٍ، فمنهم من يقسمه إلىٰ أكبرَ وأصغرَ(١)، ومنهم من يقسمه إلىٰ شركِ الربوبية، وشركِ الألوهيةِ، وشركِ الأسماءِ والصفاتِ، ومنه من يقسمه إلىٰ شرك الألفاظِ، وشرك الأفعالِ. وأفرادُه وصورُه كثيرةٌ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والشرك أنواعٌ كثيرة، لا يحصيها إلا اللهُ، ولو ذهبنا نذكر أنواعَه لاتَّسَعَ الكلامُ أعظمَ اتِّساع»(٢).

والشرك أخطرُ المفسِداتِ علىٰ الإطلاق؛ وأعظمُ الذنوب بالاتفاق، يقول ابنُ القيم في مَعرِض ذكرِ أمراضِ القلوب: «وَمِنْ أَعْظَمِ أَدْوَائِهِ: الشِّرْكُ، وَالذُّنُوبُ، وَالْغَفْلَةُ، وَالِاسْتِهَانَةُ بِمَحَابِّهِ وَمَرَاضِيهِ، وَتَرْكُ التَّفْوِيضِ إِلَيْهِ، وَقِلَّةُ الِاعْتِمَادِ عَلَيْهِ، وَالرُّكُونُ إِلَىٰ مَا سِوَاهُ، وَالسُّخْطُ بِمَقْدُورِهِ، وَالشَّكُّ فِي وَعْدِهِ وَوَعِيدِهِ»(٣)، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ عن خصوص هذا المفسد: «وَهَذَا أَعْظَمُ مُفْسِدَاتِهِ عَلَىٰ الْإِطْلَاقِ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ أَضَرُّ مِنْ ذَلِكَ، وَلَا أَقْطَعُ لَهُ عَنْ مَصَالِحِهِ وَسَعَادَتِهِ مِنْهُ، فَإِنَّهُ إِذَا تَعَلَّقَ بِغَيْرِ اللهِ وَكَلَهُ اللهُ إِلَىٰ مَا تَعَلَّقَ بِهِ، وَخَذَلَهُ مِنْ جِهَةِ مَا تَعَلَّقَ بِهِ، وَفَاتَهُ تَحْصِيلُ مَقْصُودِهِ مِنَ اللهِ عَزَّوَجَلَّ بِتَعَلُّقِهِ بِغَيْرِهِ وَالْتِفَاتِهِ إِلَىٰ سِوَاهُ، فَلَا عَلَىٰ نَصِيبِهِ مِنَ اللهِ حَصَلَ، وَلَا إِلَىٰ مَا أَمَّلَهُ مِمَّنْ تَعَلَّقَ بِهِ وَصَلَ، قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزًّا ۝٨١ كَلَّا سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨١، ٨٢]، وَقَالَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لَعَلَّهُمْ يُنْصَرُونَ ۝٧٤ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَهُمْ وَهُمْ لَهُمْ جُنْدٌ مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٧٤، ٧٥]، فَأَعْظَمُ النَّاسِ خِذْلَانًا مَنْ تَعَلَّقَ بِغَيْرِ اللهِ، فَإِنَّ مَا فَاتَهُ مِنْ مَصَالِحِهِ وَسَعَادَتِهِ وَفَلَاحِهِ أَعْظَمُ مِمَّا حَصَلَ لَهُ مِمَّنْ تَعَلَّقَ بِهِ، وَهُوَ

(١) وزاد بعض أصحاب هذا التقسيم قسمًا ثالثًا، وهو: الشرك الخفي، لخفائه ودقة مسائله، وإن كان داخلًا في القسمين المتقدمين.
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٣٧٦).
(٣) ينظر: زاد المعاد، لابن القيم، (ك ٤ / ص ١٨٥).

مُعَرَّضٌ لِلزَّوَالِ وَالْفَوَاتِ، وَمَثَلُ الْمُتَعَلِّقِ بِغَيْرِ اللهِ كَمَثَلِ الْمُسْتَظِلِّ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ بِبَيْتِ الْعَنْكَبُوتِ، وَأَوْهَنِ الْبُيُوتِ»[١].

فالشرك هو الذنبُ الذي لا يُغفر إنْ لم يَتُبْ منه صاحبُه، قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ١١٦]، وقد حرَّم اللهُ الجنةَ علىٰ أهل الشرك، فقال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾﴾ [المائدة: ٧٢]. وإنَّ الشركَ محبطٌ للعمل كما قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٨٨]، وما ذلك إلا لأنه شبَّه المخلوقَ بالخالق، وصرفَ حقَ الخالقِ للمخلوق، وخالفَ فيه المخلوقُ القِسطَ الذي أمر الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ به، قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: ٢٥]، «فأخبر أنه أرسل رسلَه، وأنزل كتبَه، ليقوم الناسُ بالقِسطِ، وهو العدل، ومن أعظم القسط: التوحيدُ، بل هو رأسُ العدل وقوامُه، وإنَّ الشركَ لَظلمٌ عظيم، فالشركُ أظلمُ الظلم، والتوحيدُ أعدلُ العدل، فما كان أشدَّ منافاةً لهذا المقصودِ فهو أكبرُ الكبائر، وتفاوتُها في درجاتها بحسب منافاتِها له»[٢]. يقول ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «مَثُلُ المشركِ كمن استعمله سيِّدُه في داره فكان يعمل ويؤدي خَراجَه وعملَه إلىٰ غير سيِّدِه، فالمشركُ يعمل لغير الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ في دارِ الله، ويتقربُ إلىٰ عدو الله بنعمِ الله»[٣].

والشرك من أكبرِ الكبائرِ، وأبغضُ إلىٰ الله من جميع الذنوبِ، وصاحبُه

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٥٥).
(٢) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ٢٩٦).
(٣) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (٣٢).

مخذولٌ موكولٌ إلىٰ شركِه، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**أَكْبَرُ الْكَبَائِرِ: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَقَتْلُ النَّفْسِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَقَوْلُ الزُّورِ**»، أَوْ قَالَ: «**وَشَهَادَةُ الزُّورِ**»،(١) وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: «**أَنَا أَغْنَىٰ الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ**»(٢). فمضارُّ الشرك عظيمةٌ، وآثارُه وخيمةٌ في الدنيا والآخرةِ، وليت شعري كم حجمُ فسادِ هذا القلبِ الذي داخَلَه الشركُ! يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «والمقصود أنَّ الشركَ لَمَّا كان أظلمَ الظلم، وأقبحَ القبائح، وأنكرَ المنكَرات؛ كان أبغضَ الأشياءِ إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، وأكرهَهَا له، وأشدَّها مقتًا لَديه، ورتَّب عليه من عقوباتِ الدنيا والآخرةِ ما لم يرتِّبه علىٰ ذنبٍ سواه»(٣).

والشركُ يأتي علىٰ رأسِ العوائقِ التي تُعيق القلبَ عن سَيره إلىٰ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَأَمَّا الْعَوَائِق فَهِيَ أَنْوَاع المخالَفات ظَاهرهَا وباطنها، فَإِنَّهَا تعوق الْقلبَ عَن سَيره إِلَىٰ الله، وتَقطَع عَلَيْهِ طَرِيقَه، وَهِي ثَلَاثَة أُمُور: شركٌ، وبدعةٌ، ومعصيةٌ؛ فيزول عائقُ الشّرك بتجريدِ التَّوْحِيد، وعائقُ الْبِدْعَة بتحقيقِ السّنة، وعائقُ الْمَعْصِيَة بتصحيحِ التَّوْبَة»(٤).

والمفسد الثاني من مفسدات القلوب في هذا البيت هو الشهوات

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب الديات، باب قول الله تعالىٰ: ﴿ومن أحياها﴾، برقم (٦٨٧١)، ومسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، برقم (٨٧).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك فِي عمله غير الله، برقم (٢٩٨٥).

(٣) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ٦٠).

(٤) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٤٥).

والمنكرات والمعاصي، والعصيان اسم من: عصىٰ يعصِي عصيًا وعِصيانًا، ويقال: عصا، وهو عاصٍ، والجمع عُصَاة وعاصون. وأصله مُفَارَقَة الطاعة والخروجُ عنها[١].

والعصيان اصطلاحًا: ترك الانقيادِ لما أمر اللهُ به أو نَهَىٰ عنه[٢]، أي فِعلُ المحظوراتِ، وتركُ المأمورات.

والشهوة: هي الرغبةُ في الشيء ومحبتُه[٣]، وهي ليست مذمومةً في حدِّ ذاتها، وإنما بحسب ما تُستخدم، فإنِ استُخدمت فيما يَنفع وما يُبَاح فهي خيرٌ لصاحبها، وإلا فهي شرٌ عليه، وهذا الثاني هو المقصود في المفسدات، يقول ابنُ تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ الله خلق فينا الشهواتِ واللّذّاتِ؛ لِنستعينَ بها علىٰ كمالِ مصالحِنا، فخَلَقَ فينا شهوةَ الأكل واللّذّةَ به، فإنَّ ذلك في نفسه نعمةٌ، وبه يحصل بقاءُ جسومِنا في الدنيا، وكذلك شهوةُ النكاح واللذةُ به في نفسه نعمةٌ، وبه يحصل بقاءُ النسل، فإذا اسْتُعين بهذه القوىٰ علىٰ ما أمرنا كان ذلك سعادةً لنا في الدنيا والآخرة، وكنَّا من الذين أنعَمَ اللهُ عليهم نعمةً مطلقةً، وإنِ استعملنا الشهواتِ فيما حَظَرَه علينا بأكلِ الخبائث في نفسها، أو كسبِها كالمظالم، أو بالإسرافِ فيها، أو تعدَّينا أزواجنَا، أو ما ملكت أيمانُنَا، كنَّا ظالمين معتدِين غيرَ شاكرين لنعمته»[٤].

وتُطلق الشهواتُ علىٰ خصوص شهوات الفرْج والبطن، كما تطلق علىٰ

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٧٨٠)، (ع ص ي)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٥ / ص ٦٨)، (ع ص ي).
(٢) ينظر: التوقيف، للمناوي، (ص ٧)، والتعريفات، للجرجاني، (ص ١٥٦).
(٣) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (م ١٤ / ص ٤٤٥)، (ش هـ و).
(٤) ينظر: الاستقامة، لابن تيمية، (م ١ / ص ٣٤١).

عمومِ المعاصي. وشهوةُ النساء من أعظمِ شهواتِ الدنيا، فَعَنْ أُسَامَةَ بْنِ زَيْدٍ رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «مَا تَرَكْتُ بَعْدِي فِتْنَةً أَضَرَّ عَلَىٰ الرِّجَالِ مِنَ النِّسَاءِ»(١).

وتُقسَّم الذنوب باعتباراتٍ مختلفةٍ، منها تقسيمُ الذنوب إلىٰ كبائرَ وصغائرَ(٢)، قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، قال الطوفي رَحِمَهُٱللَّهُ: «فيه انقسامُ السيئات إلىٰ كبائرَ وصغائرَ»(٣)، ومنها تقسيم الذنوب إلىٰ ذنوبٍ تتعلق بالآدميين وذنوبٍ بين العبد وربِّه(٤)، ومنها تقسيم الذنوب إلىٰ ذنوبٍ مَلَكيَّة كالعظمة والكبرياء وذنوبِ شيطانيةٍكالحسد والبغيِّ وذنوبٍ سبعِيَّةٍ كالعدوانِ وسفكِ الدماءِ وذنوبٍ بَهيمية كالشَّرَهِ والحِرْصِ علىٰ قضاءِ شهوةِ البطن والفرج(٥).

والمعاصي في درجاتٍ مختلفةٍ، وهكذا العصاةُ فهم متفاوتون، فمنهم من يرتكب المعاصيَ ويمتنع عن الطاعات، ومنهم من يرتكب المعاصي ويفعل الطاعاتِ(٦).

وأضرار الذنوب مخيفةٌ، فهي تجلب النِقَمَ، وتزيل النعمَ، وتُهلِك الأممَ،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب النكاح، باب ما يتقىٰ من شؤم المرأة، برقم (٥٠٩٦)، ومسلم في صحيحه، كتاب الرقاق، باب أكثر أهل الجنة الفقراء، برقم (٢٧٤٠).
(٢) ينظر: الداء والدواء لابن القيم، (ص ٢٨٩).
(٣) ينظر: الإشارات الإلهية إلىٰ المباحث الأصولية، للطوفي، (م ٢ / ص ٢٢).
(٤) ينظر: مختصر منهاج القاصدين، لابن قدامة، (ص ٢٥٢).
(٥) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ٢٢٢).
(٦) ينظر: أدب الدنيا والدين، للماوردي، (ص ١٠٣).

قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٠]، وكلما قلَّت الذنوبُ صَفَتِ القلوبُ، قال مكحولٌ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أرقُّ الناس قلوبًا، أقلُّهم ذنوبًا»[١]، وبقدر فعل الشهوات يُحجب القلبُ عن التعلُّق بالرَّبِّ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلوبُ المتعلِّقة بالشهوات محجوبةٌ عنِ الله بقدر تعلقها»[٢].

ولابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ كلامٌ نفيسٌ طويلٌ حول أضرار الذنوب والمعاصي، اختصر في هذا المقامِ الأضرارَ المتعلِّقة بالقلب؛ إذ قال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وللمعاصي من الآثارِ القبيحةِ المذمومةِ والمضرةِ بالقلبِ والبدنِ والدنيا والآخرةِ ما لا يعلمه إلا الله؛ فمنها ظُلمةٌ يجدها في قلبه حقيقةً، يُحِسُّ بها كما يحسُّ بظلمةِ الليل البهيمِ إذا ادلَهَمَّ، فتصير ظلمةُ المعصية لقلبه كالظلمةِ الحسيَّة لبصره، فإنَّ الطاعةَ نورٌ، والمعصية ظلمةٌ. ومنها: أنَّ المعاصيَ تُوهِن القلبَ والبدنَ، وأما وهنُها للقلب فأمرٌ ظاهرٌ، بل لا تزال توهِنُه حتىٰ تزيلَ حياتَه بالكلية، ومنها - وهو مِن أخوفِها علىٰ العبد - أنها تُضعفُ القلبَ عن إرادته، فتقوِّي إرادةَ المعصية، وتُضعف إرادةَ التوبة شيئًا فشيئًا إلىٰ أنْ تنسلخَ من قلبه إرادةُ التوبة بالكلية. ومنها أنه ينسلخُ من القلب استقباحُها، فتصير له عادةً، فلا يستقبِح من نفسه رؤيةَ الناس له، ولا كلامَهم فيه. ومنها أنَّ الذنوبَ إذا تكاثرت طُبع علىٰ قلب صاحبها، فكان من الغافلين. ومنها أنها تُطفئ من القلب نارَ الغَيرة التي هي لحياته وصلاحه كالحرارة الغريزية لحياة جميع البدن. ومنها ذهابُ الحياء الذي هو مادة الحياة للقلب. ومنها أنها تُضعف

(١) ينظر: الحلية، لأبي نعيم، (م ٢ / ص ٣٥١).
(٢) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٤٢).



في القلب تعظيمَ الربِّ جل في علاه، وتضعف وقارَه في قلب العبد، ولا بُدّ، شاء أم أبىٰ. ومنها أنها تضعف سَيرَ القلب إلىٰ الله والدار الآخرة. ومنها ما يُلقيه الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ من الرعب والخوف في قلب العاصي، فلا تراه إلا خائفًا مرعوبًا، ومنها أنها تُوقِع الوحشةَ العظيمةَ في القلب. ومنها أنها تصرف القلبَ عن صحتِه واستقامته إلىٰ مرضه وانحرافه. ومنها أنها تعمي بصيرةَ القلب، وتطمس نورَه، وتسدُّ طرقَ العلم، وتحجب موادَ الهداية. ومنها أنها تعمي القلبَ، فإنْ لم تُعْمِه أضعفت بصيرتَه. ومنها حجابُ القلب عن الربِّ في الدنيا، والحجابُ الأكبرُ يوم القيامة»[(١)].

ثم إن هذه الآثار والعقوبات علىٰ القلوب تنتقل للأبدان ولا بد، «وعقوبة القلوب أشدُّ العقوبتين، وهي أصل عقوبة الأبدان، وهذه العقوبة تَقْوَىٰ وتتزايد حتىٰ تسْري من القلب إلىٰ البدن»[(٢)].

ومما يُزيد الذنوبَ قبحًا، وبالقلب فتكًا، أمران: أحدهما الاستهانةُ بالذنوب واحتقارُها، والثاني المجاهرةُ بالذنوب بعد ستر الله، وكم جاءت النصوصُ في ذمِّ هذين الأمرين، فعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «إِنَّكُمْ لَتَعْمَلُونَ أَعْمَالًا هِيَ أَدَقُّ فِي أَعْيُنِكُمْ مِنَ الشَّعَرِ، إِنْ كُنَّا لَنَعُدُّهَا عَلَىٰ عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْمُوبِقَاتِ»[(٣)]. وعَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا بَطْنَ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بِعُودٍ، حَتَّىٰ أَنْضَجُوا خُبْزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ**

---

(١) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، بتصرف، (ص ١٢٣- ٢٧٨).
(٢) ينظر: المصدر السابق، (ص ٢٦٧).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب ما يتقىٰ من محقرات الذنوب، برقم (٦٤٩٢).

مَتَىٰ يُؤْخَذْ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكْهُ»[١]. وعن أبي هُرَيْرَةَ قال: «سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقُولُ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَافًىٰ إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمَجَانَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللهُ، فَيَقُولَ: يَا فُلَانُ، عَمِلْتُ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللهِ عَنْهُ»»[٢].

ومن لطيف الشعر في أثر الذنوب في القلوب قول ابن المبارك[٣] رَحِمَهُ اللهُ:

رأيتُ الذنوبَ تُمِيتُ القلوب ويُورِثُها الذلَّ إدمانُها
وتركُ الذنوبِ حياةُ القلوب وخيرٌ لنفسِكَ عِصيانُها

📖📖📖

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ، حديث أبي مالك سهل بن سعد الساعدي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، برقم (٢٣٢٧٢) وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣١٠٢).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن علىٰ نفسه، برقم (٦٠٦٩).

(٣) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، (م ٦ / ص ٣٣٦).



وَبِدْعةٍ، وَغَفْلَةٍ، نِفَاقِ	والحسَدِ، الكِبْرِ، كذا الشِّقاقِ

يذكر الناظم في هذا البيت جملةً من مفسدات القلوب:

وأول هذه المفسدات: الأهواءُ والبدعُ.

والبدعة لغة: من بَدَعَ، يقال: ابتدع الشيءَ يبتدعه، وتأتي علىٰ معنيين، أحدهما: ابتداء الشيء لا عن مثال سابق، والثاني: الانقطاع والكلال[1].

والبدعة اصطلاحًا: «طريقة في الدين مخترَعة تضاهِي الشرعيَّة، يُقصد بالسلوك عليها ما يُقصد بالطريقة الشرعية»[2]، فالبدعة ما أُحدثَ في الدين، وليس له أصلٌ في الشرع، لا مِن أدلته ولا مِنْ قواعِدِه.

وقد قسَّم العلماءُ البدعَ باعتباراتٍ كثيرة، منها ما هو صحيح، ومنها ما هو مَحلُّ نظر، فمن تقسيماتهم: البدعةُ الشرعية، والبدعة اللغوية[3]، ومن التقسيمات: البدعة الحقيقية، والبدعة الإضافية[4]، ومنها تقسيمُ البدعة إلىٰ مكفِّرة ومفسِّقة، وأما تقسيم البدع وفق الأحكام التكليفية، وتقسيم البدعة إلىٰ حَسَنَةٍ وسيئةٍ؛ فمردود، فالبدع كلها مذمومة مستقبَحة، ولا يوجد في الشرع بدعةٌ حَسَنةٌ[5].

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١١٦)، (ب د ع)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١ / ص ٢٢٩).
(٢) ينظر: الاعتصام، للشاطبي، (م ١ / ص ٤٣).
(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٢ / ص ١١٦).
(٤) ينظر: الاعتصام، للشاطبي، (م ٢ / ص ١٢٧).
(٥) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ٣٢١)، وجامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ٢٦٦).



وقد ذمَّ الله الإحداثَ الذي وقع في الأمم السابقة، فقال تعالىٰ عمن أحدث وابتدع الرهبانية: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُم مِّنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَن بِهِ اللَّهُ وَلَوْلَا كَلِمَةُ الْفَصْلِ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢١﴾﴾ [الشورىٰ: ٢١]. وقد بيَّن النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ البدع مردودةٌ، وهي من أبواب الضلال، فَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ فِيهِ فَهُوَ رَدٌّ**»[١]، وفي الصحيح أيضًا: «**فَإِنَّ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ، وَخَيْرُ الْهُدَىٰ هُدَىٰ مُحَمَّدٍ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ**»[٢].

ومِن خطورة البدع قلةُ رجوع أصحابها إلىٰ الهدىٰ، فَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ حَجَبَ التَّوْبَةَ عَنْ صَاحِبِ كُلِّ بِدْعَةٍ**»[٣]، فهو يرىٰ نفسَه علىٰ حقٍّ وصواب، ويرىٰ فعلَهُ مستحسنًا، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «ولهذا قال طائفة من السلف منهم الثوري: البدعة أحبُّ إلىٰ إبليسَ من المعصية؛ لأنَّ المعصيةَ يُتاب منها، والبدعةُ لا يُتاب منها»[٤]. ومن مخاطر البدع أنها تقود لبدع أكبر حتىٰ تنتهي بالسَّيف، قال أبو قلابة رَحِمَهُ اللَّهُ: «ما ابتدع رجلٌ بدعةً إلا استحل السيفَ»[٥]، وهي أيضًا طعنٌ مُبطَّنٌ في الشرع،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا علىٰ صلح جور فالصلح مردود، برقم (٢٦٩٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب الأقضية، باب نقض الأحكام الباطلة، وردّ محدثات الأمور، برقم (١٧١٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجمعة، باب تخفيف الصلاة والخطبة، برقم (٨٦٧)

(٣) أخرجه الطبراني في الأوسط، باب العين من اسمه علي، علي بن عبد الله الفرغاني، برقم (٤٢٠٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (١٦٢٠).

(٤) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ١١ / ص ٦٨٤).

(٥) ينظر: السنن، للدارمي، (م ١ / ص ٥٨).

فالدين قد اكتمل، ولسانُ حال المبتدع الاستدراكُ على الشارع.

قال ابن الماجشون رَحِمَهُ ٱللَّهُ: سمعت مالكًا يقول: «من ابتدع في الإسلام بدعةً يراها حسَنَةً زَعَمَ أنَّ محمَّدًا خانَ الرسالةَ؛ لأنَّ الله يقول: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة: ٣] فما لم يكن يومئذ دينًا، فلا يكون اليوم دينًا»[١]. وأنَّ البِدعَ وانتشارَها سببٌ لإماتة السُنن واندثارِها، قال ابنُ القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «القلوبُ إذا اشتغلت بالبدع أعرَضَت عن السُنن»[٢]، فالبدع تفسِد القلوبَ فسادًا عريضًا وتورِثها، الشكَّ والزيغَ والحيرةَ والضيقَ كما جاء عن كثيرٍ من أهل الأهواء في سِيَرهم ومواقفِهم، قال أبو بكر الورّاق رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا غَلب الهوى أظلم القلبُ»[٣].

قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فقلوب أهل البدع، والمعرضِين عن القرآن، وأهل الغفلة عن الله، وأهلِ المعاصي في جحيم قبل الجحيم الأكبر»[٤]، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فصاحب السنة حيُّ القلب مستنيرُه، وصاحب البدعة ميتُ القلب مظلمُه»[٥]، ولهذا اشتد نكيرُ السلف والأئمة للبدع، وحذروا من أهلها أشدَّ تحذير، وأنكروا على مَن يجالسهم ويحابيهم ويقترب منهم؛ لأنَّ مضرةَ الأهواء من أشدِّ المضارِّ بعد الشرك، وأخْتِمُ بأثرين: قال ابن عباس رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ: «لا تجالسْ أهل الأهواء؛ فإن مجالستَهم مُمْرِضةٌ للقلوب»[٦]، وقال الحسن

(١) ينظر: الاعتصام، للشاطبي، (م ١ / ص ٦١).
(٢) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ٢١٣).
(٣) ينظر: ذم الهوى، للهروي، (ص ٢٩).
(٤) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٢٣).
(٥) ينظر: اجتماع الجيوش الإسلامية، لابن القيم، (م ١ / ص ١١).
(٦) ينظر: الشريعة، للآجري، برقم (١٣٣).

البصري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تجالس صاحبَ بدعة؛ فإنه يُمرض قلبَك»[1].

وأما المفسد الثاني من مفسدات القلوب في هذا البيتِ؛ فهو الغفلة، وهو في اللغة: السَّهْوُ عن الشيء، يقال: غَفَلَ عنه يغفل غُفُولًا وغَفْلَة، وكما يُطلق على ترك الشيء سهوًا يُطلق على ترك الشيء عمدًا[2]. والغفلةُ اصطلاحًا: سهوٌ يعترِي الإنسانَ من قلَّة التحفُّظ والتيقُّظ، وقيل: متابعةُ النفس على ما تشتهيه.

ولقد حذَّرَنا اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من الغفلةِ وطرائقِ الغافلين وطاعتِهم، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا ﴿٢٨﴾﴾ [الكهف: ٢٨]، قال ابن القيم في صدد ذكر الغفلة والهوى وأثرِهما على القلب: «الغفلةُ واتباعُ الهوى يطمسان نورَ القلب ويعميان بصرَه»[3]. والغفلةُ من صفة أهل النار الذين شبههم اللهُ بالأنعام، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ [الأعراف: ١٧٩]، بل بيَّن الربُّ جلَّ في علاه أنَّ الغفلةَ أحدُ أسباب الهلاك كما جاء في وصفِ فرعونَ وقومِه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ [الأعراف: ١٣٦].

وذمَّ الله في كتابه الغافلين عن آياته، والغفلةُ داءٌ مهلِك للقلب، فإذا

---

(١) ينظر: الاعتصام، للشاطبي، (م ١ / ص ٨٢).
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٨٠١)، (غ ف ل)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١١ / ص ٤٩٧)، غ ف ل).
(٣) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (ص ٤١).

أصاب القلبَ سها الإنسان عن ذكر ربِّه، وفقد حضورَ القلب في العبادة، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**ادْعُوا اللهَ وَأَنْتُمْ مُوقِنُونَ بِالْإِجَابَةِ، وَاعْلَمُوا أَنَّ اللهَ لَا يَسْتَجِيبُ دُعَاءً مِنْ قَلْبٍ غَافِلٍ لَاهٍ**»[١]، وقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في وصيته للنساء: «**عَلَيْكُنَّ بِالتَّسْبِيحِ وَالتَّهْلِيلِ وَالتَّقْدِيسِ وَاعْقِدْنَ بِالْأَنَامِلِ، فَإِنَّهُنَّ مَسْئُولَاتٌ مُسْتَنْطَقَاتٌ، وَلَا تَغْفُلْنَ فَتَنْسَيْنَ الرَّحْمَةَ**»[٢]، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «على قَدْر غفلة العبد عن الذكر يكون بُعْدَه عن الله»[٣]، وقال أيضا: «إنَّ الغافلَ بينه وبين الله وحشةٌ لا تَزول إلا بالذِّكر»[٤]، فالغفلة عن ذكر الله سببٌ لقسوة القلب وإصابتِه بالصدأ، «وصدأُ القلب بأمرين بالغفلة والذنب، وجلاؤه بشيئين بالاستغفار والذكر»[٥]، وقال أيضا: «خرابُ القلب من الأمن والغفلة، وعمارتُه من الخشية والذكر»[٦].

وما أجملَ ما سَطَرَه ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ عن صراع كتائبِ اليقظةِ والغفلةِ في القلب لِأَجْلِ قيام الليل، فاليقظةُ تحثُّ والغفلة تُسوِّف، قال: «إِذا طلع نجمُ الهمة فِي ظلام ليلِ البَطالة وَردفهُ قمر الْعَزِيمَة أشرقت أَرضُ الْقلب بِنور رَبهَا إِذا جن اللَّيْل تغالب النَّوم والسهر فالخوف والشوق فِي مَقدِمِ عَسْكَر الْيَقظَة والكسل والتواني فِي كَتِيبَة الْغَفْلَة فَإِذا حمل الْعَزْم حملَ على الميمنة وانهزمت جنودُ التَّفْرِيط فَمَا يطلع الْفجْرُ إِلَّا وَقد قُسمت السهْمَان وَبَردت الْغَنِيمَةُ

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٣٨٢٤)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٥٩٤).

(٢) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الدعوات عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٣٩٤١)، وصححه الألباني في صحيح الجامع، برقم (٤٠٨٧).

(٣) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (ص ٦٢).

(٤) ينظر: المصدر السابق، (ص ٦٢).

(٥) ينظر: المصدر السابق، (ص ٤٠).

(٦) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٤٣).

لأَهْلِهَا»(١)، فيقظة القلب من أولِّ المنازل وبدايتِها بطردِ الغفلةِ وسوادِها من القلب، «فَأَوَّلُ مَنَازِلِ الْعُبُودِيَّةِ الْيَقَظَةُ، وَهِيَ انْزِعَاجُ الْقَلْبِ لِرَوْعَةِ الِانْتِبَاهِ مِنْ رَقْدَةِ الْغَافِلِينَ، وَلِلَّهِ مَا أَنْفَعَ هَذِهِ الرَّوْعَةَ، وَمَا أَعْظَمَ قَدْرَهَا وَخَطَرَهَا، وَمَا أَشَدَّ إِعَانَتَهَا عَلَىٰ السُّلُوكِ! فَمَنْ أَحَسَّ بِهَا فَقَدْ أَحَسَّ -وَاللهِ- بِالْفَلَاحِ، وَإِلَّا فَهُوَ فِي سَكَرَاتِ الْغَفْلَةِ، فَإِذَا انْتَبَهَ شَمَّرَ لِلَّهِ بِهِمَّتِهِ إِلَىٰ السَّفَرِ إِلَىٰ مَنَازِلِهِ الْأُولَىٰ، وَأَوْطَانِهِ الَّتِي سُبِيَ مِنْهَا.

فَحَيَّ عَلَىٰ جَنَّاتِ عَدْنٍ فَإِنَّهَا مَنَازِلُكَ الْأُولَىٰ وَفِيهَا الْمُخَيَّمُ
وَلَكِنَّنَا سَبْيُ الْعَدُوِّ فَهَلْ تَرَىٰ نَعُودُ إِلَىٰ أَوْطَانِنَا وَنُسَلِّمُ»(٢)

ومن جميل وصاياه رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «يا مَن هبَّت علىٰ قلبه جنوبُ المجانبَة، فتكاثفت عليه غيومُ الغفلةِ، فأظلمَ أفقُ المعرفة: لا تيأس، فالشمس تحت الغيم، لو تصاعدَ منك نَفَسُ أَسَفٍ استحالت شمالًا فتقطع السحابَ، فبانتِ الشمسُ تحتَه»(٣).

وأما المفسد الثالث من مفسدات القلوب في هذا البيتِ فهو النفاق، وهو في اللغة: من مادة «نفق» التي تدل علىٰ الإخفاء وعدم الإظهار، فالنفق سربٌ في الأرض له مَخلصٌ إلىٰ مكان آخرَ، وقيل لأحد جُحرُي اليربوع: النافقاء؛ لأنه يكتمه ويظهر غيرَه، فإذا أتي من جهة القاصعاء ضرَب النافقاء برأسه فانفتق(٤). وفي الاصطلاح: إظهار الإيمان وكتمان الكفر(٥). وينقسم النفاق

(١) ينظر: المصدر السابق، (ص ٥٢).
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ١٤٢).
(٣) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣ / ص ٢٣٧).
(٤) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١٠٣٨)، (ن ف ق)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٠ / ص ٣٥٩)، (ن ف ق).
(٥) ينظر: التعريفات، للجرجاني، (ص ٢٤٥).

إلىٰ قسمين: النفاقُ الاعتقاديُّ الأكبر، والنفاق العمليُّ الأصغر[١].

لقد رتَّب اللهُ علىٰ النفاق أشدَّ العقاب فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: ١٤٥]، وقد وصف الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ النفاق بالمرض: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ [البقرة: ١٠]، قال ابن القيم: «قد نَهكت أمراضُ الشبهات والشهوات قلوبَهم فأهلكتها، وغلبت القصودُ السيئةُ علىٰ إراداتِهم ونيَّاتِهم فأفسدتها»[٢]، وبسبب فساد قلوبهم يَصْعُب عليهم ذكرُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [النساء: ١٤٢]، وفي المقابل يستسيغ الغناءَ، قال عبد الله بن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «الغناء يُنبت النفاقَ في القلب»[٣]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فمن علامات النفاق: قلةُ ذكر الله، والكسلُ عند القيام إلىٰ الصلاة، ونقرُ الصلاة، وقلَّ أنْ تجد مفتونًا بالغناء إلا وهذا وَصْفُه»[٤]، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فهذا من علامة النفاق: قلةُ ذكر الله. وكثرةُ ذكر الله أمانٌ من النفاق، والله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أكرمُ من أنْ يَبتلِي قلبًا ذاكرًا بالنفاق، وإنما ذلك لقلوب غفلت عن ذكر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ»[٥]. وأهل النفاق وإن كان ظاهرُهم حَسَنًا إلا أنَّ القلوبَ مريضةٌ خبيثة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَهُمْ تُعْجِبُكَ أَجْسَامُهُمْ وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾ [المنافقون: ٤]، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «أحسنُ الناس أجسامًا، وأخلبُهم لسانًا، وألطفُهم بيانًا، وأخبثُهم قلوبًا،

---

(١) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م ٧ / ص ٥٢٤)، وجامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ٣٧٥).
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٣٤٩).
(٣) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٥٠٩٨).
(٤) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ٢٥٠).
(٥) ينظر: الوابل الصيب، لابن القيم، (ص ١١٠)

وأضعفُهم جنانًا، فهم كالخُشُب المسنَّدة التي لا ثمرَ لها»[(١)].

ولخطورةِ النفاق كان الصحابة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمْ يخافون علىٰ أنفسهم منه، قَالَ ابْنُ أَبِي مُلَيْكَةَ رَحِمَهُٱللَّهُ: «أَدْرَكْتُ ثَلَاثِينَ مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَخَافُ النِّفَاقَ عَلَىٰ نَفْسِهِ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ يَقُولُ: إِنَّهُ عَلَىٰ إِيمَانِ جِبْرِيلَ وَمِيكَائِيلَ»[(٢)]، وعن جبير بن نفير رَحِمَهُٱللَّهُ: «أنه سمع أبا الدرداء وهو في آخِرِ صلاته، وقد فرغ من التشهد يتعوَّذ بالله من النفاق، فأكثر التعوذ منه، فقال جبير: وما لك يا أبا الدرداء أنت والنفاق؟ فقال: «دعنا عنك، دعنا عنك، فوالله إنَّ الرجلَ ليُقلَّب عن دينه في الساعة الواحدة، فيُخلع منه»[(٣)]. قال ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «تالله لقد مُلئت قلوبُ القوم إيمانًا ويقينًا، وخوفُهم من النفاق شديدٌ، وهمُّهم لذلك ثقيل، وسواهم كثيرٌ لا يُجاوِز إيمانُهم حناجرَهم، وهم يدَّعون أن إيمانهم كإيمان جبريلَ وميكائيلَ»[(٤)]. وقال ابن رجب رَحِمَهُٱللَّهُ: «وَمِنْ هُنَا كَانَ الصَّحَابَةُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنَ السَّلَفِ الصَّالِحِ يَخَافُونَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمُ النِّفَاقَ، وَيَشْتَدُّ قَلَقُهُمْ وَجَزَعُهُمْ مِنْهُ، فَالْمُؤْمِنُ يَخَافُ عَلَىٰ نَفْسِهِ النِّفَاقَ الْأَصْغَرَ، وَيَخَافُ أَنْ يَغْلِبَ ذَلِكَ عَلَيْهِ عِنْدَ الْخَاتِمَةِ، فَيُخْرِجَهُ إِلَىٰ النِّفَاقِ الْأَكْبَرِ، كَمَا تَقَدَّمَ أَنَّ دَسَائِسَ السُّوءِ الْخَفِيَّةُ تُوجِبُ سُوءَ الْخَاتِمَةِ»[(٥)].

فالعاقل يخاف علىٰ نفسه من النفاق، ويسأل اللهَ السلامةَ منه، فالقلوب تتقلَّب، «سُئل الإمامُ أحمدُ رَحِمَهُٱللَّهُ: ما تقول فيمن لا يخاف علىٰ نفسه النفاقَ؟،

---

(١) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٣٥٤).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه تعليقًا، كتاب الإيمان، باب خوف المؤمن من أن يحبط عمله وهو لا يشعر، (م١ / ص ٢٦).
(٣) ينظر: السير، للذهبي، (م ٦ / ص ٣٨٢).
(٤) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٣٥٨).
(٥)) ينظر: جامع العلوم والحكم، لابن رجب، (ص ١٧٤).



قال: ومن يأمن على نفسه النفاقَ»[١].

والمفسد الرابع من مفسدات القلوب في هذا البيتِ هو الحسد، وفي اللغة مِنْ حَسَدَه يحسِده ويحسُده، حَسَدًا وحُسُودًا وحَسَادَة، تمنَّىٰ أنْ تتحوَّل إليه نعمتُه وفضيلتُه، أو يُسلبهما، وحسده الشيء وعليه[٢]. واصطلاحًا: تمنِّي زوالَ نعمةٍ عن مستحِقّ لها. وقيل: هو ظلم ذي النعمة بتمنّي زوالها وصيرورتِها إلىٰ الحاسد[٣].

والفرق بينه وبين الغبطة: أنَّ الغِبطة هو أنْ يتمنىٰ مثلَ النعمة التي علىٰ غيرِه مِن غيرِ زوالِها عنه[٤]. والحقدُ أوسعُ من الحسد، وهو أحدُ أسباب الحسد، وحقيقتُه إضمارُ الشر، وتوقعُه كلَّ وقت فيمن وُجدت فيه، فلا يزايل القلبَ أثرُه[٥]. والعائن أخصُّ من الحاسد؛ لأنه قد يصيب مَن لا يحسده[٦].

ولقد حذَّرت الشريعةُ من الحسد، ودعت للاستعاذة من شرِّ الحاسد، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ في ذكر الاستعاذات في سورة الفلق: ﴿وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾ [الفلق: ٥]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [النساء: ٥٤]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا مَا فَضَّلَ اللَّهُ بِهِ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ [النساء: ٣٢]. قال القرطبي في تفسير الآية: «والحسدُ

---

(١) ينظر: المصدر السابق، (ص ٣٧٨).
(٢) ينظر: القاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص٣٥٣)، وتاج العروس، للزبيدي، (م٨/ ص ٢٥)، (ح س د).
(٣) ينظر: التعريفات، للجرجاني، (ص ٨٧)، والتوقيف، للمناوي، (ص ١٣٩)، والمفردات، للراغب، (ص ١١٧).
(٤) ينظر: شرح صحيح مسلم، للنووي، (م ٦ / ص ٩٧)، والكليات، للكفوي، (ص ٦٧٢).
(٥) ينظر: الروح، لابن القيم، (ص ٢٥١).
(٦) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢٣١).



مذمومٌ، وصاحبه مغموم، وهو يأكل الحسناتِ كما تأكل النارُ الحطبَ ..»، وفي الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**لا تَحَاسَدُوا، وَلا تَبَاغَضُوا، وَلا تَجَسَّسُوا، وَلا تَحَسَّسُوا، وَلا تَنَاجَشُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا**»[1]. قال معاوية رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «كلُّ الناس أستطيع أنْ أرضيَه إلا حاسدَ نعمة، فإنه لا يُرضيه إلا زوالُها»[2].

والحسد يؤدي إلىٰ غيره من الغِيبة والتجسس والعداوةِ والبَغْيِ، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «والحسد يُوجب الْبَغْيَ كَمَا أخبر اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ عمَّن قبلنَا من آل عمرَان أَنهم اخْتلفُوا ﴿مِن بعد مَا جَاءَهُم الْعلمُ بغيا بَينهم﴾، فَلم يكن اخْتلَافُهمْ لعدم الْعلم، بل علمُوا الْحقَّ، وَلَكِن بَغَىٰ بَعضُهم علىٰ بعض كَمَا يَبْغِي الحاسدُ علىٰ الْمَحْسُود»[3]. وهي تحجب عن الحق وقبوله، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَلَكِنَّ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْ الْحَسَدِ وَالْكِبْرِ وَنَحْوِ ذَلِكَ مَانِعٌ مِنْ اسْتِسْلَامِ الْقَلْبِ وَانْقِيَادِهِ وَمَحَبَّتِهِ»[4]. وصاحب الحسد قد يموت من الكمد والحسرة مع الاسترسال في هذا الداءِ الذي يُهلك القلبَ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فإنَّ الحسدَ كالنار، فإذا لم تجد ما تأكلُه أكل بعضُها بعضًا»[5]، وفعلُ الحاسد يسرُّ الشيطانَ، يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «الحاسدُ شبيهٌ بإبليسَ، وهو في الحقيقة مِن أتباعه؛ لأنه يطلب ما يحبّه الشيطانُ من فساد الناس، وزوالِ نِعمِ الله عنهم، كما أنَّ إبليسَ حسد آدم لشرفه وفضله، وأَبَىٰ أنْ يسجد له حسدًا،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم الظن والتجسس والتنافس والتناجش ونحوها، برقم (٢٥٦٣)
(٢) ينظر: التاريخ، لابن عساكر، (م ٥٩/ ص ٢٠٠).
(٣) ينظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، (م١٠ / ص ١٢٧).
(٤) ينظر: المصدر السابق، (م ٧ / ص ٣٥٣).
(٥) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٢ / ص ٢٤٠).

فالحاسد من جند إبليسَ»[١]. يقول الماوردي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في أثر الحسد في القلب: «وَأما الْأَخَصّ بالباطن فكَدُّ الْقلب بغَمه وهدُّ الْجَسَد بسقمه، لَا يجد لِقَلْبِهِ سلوًّا، وَلَا لجسده هُدُوًّا، وَهَذَا عَذَابٌ جَنَتْه يَدَاهُ، والمحسود قرير الْعين، وادع الْجَسَد، قد ضُرَّ وَلم يستضر. وَقيل: لَيْسَ فِي خِصَال الشَّرِّ شَيْءٌ أعدلُ من الْحَسَد؛ لِأَنَّهُ يبْدَأ بإضرار الْحَاسِد قبل الْمَحْسُود»[٢].

والمفسد الخامس من مفسدات القلوب في هذا البيت: الكِبْر، وهو في اللغة: بمعنىٰ العظمة والتجبر[٣]، وشرعًا: «الْكِبْرُ: بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ»[٤]. وقيل: أنْ يرىٰ نفسَه أكبرَ من غيره[٥]. والتكبُّر علىٰ نوعين: تكبّرٌ علىٰ الحق، وتكبّرٌ علىٰ العباد.

والكِبْر من أمراض القلوب الخطيرة، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ثم إنَّ القلبَ يعرض له مرضان عظيمان، إنْ لم يتداركْهما تراميا به إلىٰ التَّلف ولا بد: وهما الرياء، والكبر، فدواء الرياء بـ ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ ودواء الكبر بـ ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾.

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية- قدَّسَ الله روحه- يقول: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء»[٦]. وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «أُصُول الْخَطَايَا كلُّهَا ثَلَاثَة: الْكبر، وَهُوَ الَّذِي أصار إِبْلِيس إِلَىٰ مَا أصاره،

(١) ينظر: المصدر السابق، (م ٢ / ص ٢٣٤).
(٢) ينظر: تسهيل النظر، للماوردي، (م ١/ ص ١٢٠)
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٩١٦)، (ك ب ر)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٥ / ص ١٢٩)، (ك ب ر).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم (٩١).
(٥) ينظر: الكليات، للكفوي، (ص ٢٨).
(٦) ينظر: التفسير القيم، لابن القيم، (م١ / ص ٥١)

والحرص، وَهُوَ الَّذِي أخرج آدم من الْجنَّة، والحسد، وَهُوَ الَّذِي جرَّأ أحد ابنَيْ آدم علىٰ أَخِيه، فَمن وُقِي شَرَّ هَذِه الثَّلَاثَة فقد وُقِي الشَّرَّ»(١). وقال الماوردي: «الكبر والإعجاب يَسلبان الفضائل، ويُكسبان الرذائل»(٢)، ولقد توعَّد اللهُ أهلَ الكبر بالصَّرف عن الآيات، فلا يستفيدون منها ولا ينتفعون، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [الأعراف: ١٤٦]، أي: «سأمنع فهمَ الحججِ والأدلةِ علىٰ عظمَتِي وشريعتي وأحكامي قلوبَ المتكبرين عن طاعتي»(٣)، وتَوَعَّدَهم بالطبع علىٰ قلوبهم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ [غافر: ٣٥]، وجعل النارَ مثواهم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَلَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ [النحل: ٢٩].

والكبر من أسباب المنع من دخول الجنة، عَنْ عَلْقَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ مَسْعُودٍ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**لا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ كِبْرٍ**». قَالَ رَجُلٌ: إِنَّ الرَّجُلَ يُحِبُّ أَنْ يَكُونَ ثَوْبُهُ حَسَنًا، وَنَعْلُهُ حَسَنَةً. قَالَ: «**إِنَّ اللهَ جَمِيلٌ يُحِبُّ الْجَمَالَ، الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ، وَغَمْطُ النَّاسِ**»(٤)، ويُحشر المتكبرون يوم القيامة في غاية الذلِّ والصَّغار، قال صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**يُحْشَرُ الْمُتَكَبِّرُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْثَالَ الذَّرِّ فِي صُوَرِ الرِّجَالِ، يَغْشَاهُمُ الذُّلُّ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ، فَيُسَاقُونَ إِلَىٰ سِجْنٍ فِي جَهَنَّمَ يُسَمَّىٰ بُولَسَ، تَعْلُوهُمْ نَارُ الْأَنْيَارِ، يُسْقَوْنَ مِنْ عُصَارَةِ أَهْلِ النَّارِ طِينَةَ الْخَبَالِ**»(٥).

---

(١) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ٥٨).

(٢) ينظر: أدب الدنيا والدين، للماوردي، (ص ٢٣١).

(٣) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٢ / ص ٣٢٩).

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، برقم (٩١).

(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٢٤٩٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٢٩١١).

والشيطان قد يُدخل الكِبْرَ من أبواب العُجْب الكثيرةِ، كإعجاب المرءِ بعلمه وعبادته، والفَطِنُ من يقف عند هذه الخواطر، فيقطعها من بدايتها حتىٰ لا تستقرّ في القلب، قال أيوب العطار رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سمعت بشر بن الحارث يقول: حدَّثَنا حماد بن زيد، ثم قال: أستغفر الله، إنَّ لِذكر الإسناد في القلب لَخُيَلاءَ»[١]، وكلّما عظُم في القلب جانبُ التعلّقِ بالله والإخلاص كان ذلك مخلِّصًا للعبد من الكبر، يقول ابن تيمية رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وَلَنْ يَسْتَغْنِيَ الْقَلْبُ عَنْ جَمِيعِ الْمَخْلُوقَاتِ إِلَّا بِأَنْ يَكُونَ اللهُ هُوَ مَوْلَاهُ الَّذِي لَا يَعْبُدُ إِلَّا إِيَّاهُ، وَلَا يَسْتَعِينُ إِلَّا بِهِ، وَلَا يَتَوَكَّلُ إِلَّا عَلَيْهِ، وَلَا يَفْرَحُ إِلَّا بِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَلَا يَكْرَهُ إِلَّا مَا يَبْغُضُهُ الرَّبُّ وَيَكْرَهُهُ، وَلَا يُوَالِي إِلَّا مَنْ وَالَاهُ اللهُ، وَلَا يُعَادِي إِلَّا مَنْ عَادَاهُ اللهُ، وَلَا يُحِبُّ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يَبْغُضُ شَيْئًا إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يُعْطِي إِلَّا لِلَّهِ، وَلَا يَمْنَعُ إِلَّا لِلَّهِ، فَكُلَّمَا قَوِيَ إِخْلَاصُ دِينِهِ لِلَّهِ كَمُلَتْ عُبُودِيَّتُهُ وَاسْتِغْنَاؤُهُ عَنِ الْمَخْلُوقَاتِ، وَبِكَمَالِ عُبُودِيَّتِهِ لِلَّهِ يُبْرِئُهُ مِنَ الْكِبْرِ وَالشِّرْكِ»[٢].

والمفسد السادس في هذا البيت هو الشقاق والمِراء والجدال المذموم.
وفي اللغة: الجدلُ: اللَّدد في الخصومة، والقدرة عليها، والاسترسال فيها، وجادَلَه، أي خاصَمَه، مجادلةً وجِدالًا، والمِراءُ: الجِدال[٣]، تقول: مارَيته أُماريه مُمَاراة ومِراء: جادلته[٤].

---

(١) ينظر: السير، للذهبي، (م ٧/ ص ٤٦١).
(٢) ينظر: الفتاوىٰ الكبرىٰ، لابن تيمية، (م ٥ / ص ١٩١).
(٣) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (م ١ / ص ٥٧١)، (ج د ل)، ومعجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٢٠٥)، (ج د ل).
(٤) ينظر: لسان العرب، لابن منظور، (م ١٥/ ص ٢٧٨)، (م ر ي)، والمصباح المنير، للفيومي، (م ٢ / ص ٥٦٩)، (م ر ي).



والجدال في الاصطلاح: المفاوضة على سبيل المُنازَعة والمُغالبة[١]، وقيل: المبالغة في الخصومة والمناظَرة[٢]. والمراء في الاصطلاح: الطعن في كلام الآخَر لإظهار خللٍ فيه، من غير أنْ يرتبط به غرضٌ سوى تحقير الغير[٣]، وقال أهل العلم: المراءُ والجدال سواءٌ غير أنَّ المراءَ مذموم مطْلقًا؛ لأنه مخاصمة في الحقِّ بعد ظهوره[٤].

والجدال إنْ كان للوقوف على الحق وتقريره فهو محمود، وإنْ كان الجدال في مدافَعَة الحق، أو كان بغير علم كان مذمومًا، وهو المقصود في نَظْمِنا، وعلى هذا التفصيلِ تنزل النصوصُ الواردة في إباحته وذمّه[٥].

وقد جاءت النصوص محذرةً من الجدال المذموم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ﴾ [الحج: ٣]، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَا هُمْ بِبَالِغِيهِ﴾ [غافر: ٥٦]، وهنا ثَمَّ ترابطٌ بين الكِبر والجدال، فالكِبر باعث على الجدال المذموم، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ [غافر: ٥]، وعَنْ أَبِي أُمَامَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أُوتُوا الْجَدَلَ**»، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ﴾ [الزخرف: ٥٨]»[٦].

---

(١) ينظر: المفردات، للراغب، (ص ١٨٩).
(٢) ينظر: زاد المسير، لابن الجوزي، (م ٤ / ص ٩٩).
(٣) ينظر: التعريفات للجرجاني، (ص ٢٠٩).
(٤) ينظر: الفروق اللغوية، لأبي هلال العسكري، (ص ١٥٨).
(٥) ينظر: الكبائر، للذهبي، (ص ٢٢١).
(٦) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب: ومن سورة الزخرف، برقم (٣٥٧٤)، وابن ماجه في سننه، أبواب السنة، باب اجتناب البدع والجدل، برقم (٥٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (١٤١).

قال الأوزاعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إذا أراد الله بقوم شرًّا ألزمهم الجدلَ، ومنعهم من العمل»[١]. وعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهَا، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ أَبْغَضَ الرِّجَالِ إِلَىٰ اللهِ الْأَلَدُّ الْخَصِمُ**»[٢].

والجدال والمِرَاء والخصومة لها الأثرُ البالغُ في إفسادِ القلوب، فهي تشتت القلبَ وتُقسِيه، مع ضَعف الدين، قال بعضُ السلف: «ما رأيت شيئًا أذهبَ للدين، ولا أنقصَ للمروءة، ولا أضيعَ للذةٍ، ولا أشغَلَ للقلب من الخصومة»[٣]، قال الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «المراء في العلم يُقسِّي القلبَ، ويُورِث الضغائنَ»[٤]، وقال ابن بطة رَحِمَهُ ٱللَّهُ في آثار الجِدال المذموم: «إني لم أرَ الجدالَ والمناقضة والخلاف والمماحَلة، والأهواءَ المختلفة، والآراء المختَرَعَة من شرائع النبلاء، ولا مِن أخلاق العقلاء، ولا مِن مذاهب أهل المروءة، ولا مما حُكِي لنا عن صالِحِي هذه الأمةِ، ولا من سِير السلف، ولا من شيمة المَرْضِيِّين من الخَلَف، وإنما هو لهوٌ يُتعلم، ودرايةٌ يُتفكَّه بها، ولَذّةٌ يُستراحُ إليها، ومهارشةُ العقول، وتذريبُ اللسان بِمَحْق الأديان، واستمتاعٌ بظهور حُجّةِ المخاصِم، وقصدٌ إلىٰ قهرِ المناظر، والمغالَطةُ في القياس، وبَهْتٌ في المقاولة، وتكذيبُ الآثار، وتسفيهُ أحلام الأبرار، ومكابرةٌ لنصِّ التنزيل، وتهاونٌ بما قاله الرسول صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ونقضٌ لعقدةِ الإجماع، وتشتيتُ الألفة، وتفريقٌ لأهلِ المِلّة، وشكوكٌ تدخل علىٰ الأمة، وتوغيرٌ للقلوب، وتوليدٌ للشَّحْناءِ في النفوس، عَصَمَنَا اللهُ وإياكم من ذلك، وأعاذَنا من مجالَسَة أهل الأهواء»[٥].

(١) ينظر: الآداب الشرعية، لابن مفلح، (م ١ / ص ١٨).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المظالم، باب قول الله تعالىٰ: (وَهُوَ أَلَدُّ الْخِصَامِ)، برقم (٢٤٥٧)، ومسلم في صحيحه، كتاب العلم، باب فِي الألدّ الخصم، برقم (٢٦٦٨).
(٣) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، (م ١٠ / ص ٢٩٧).
(٤) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٨٤٨٨).
(٥) ينظر: الإبانة، لابن بطة، (م ٢ / ص ٥٣١).

والعشقِ، والوسوسةِ المُصَغِّرَهْ	ثم الفضولِ، أو هَوَىٰ المُحَقَّرَهْ

يذكر الناظم في هذا البيت أيضًا جملةً من مُفسِدات القلوب:

أولها الفضول، وهو في **اللغة**: من فَضَلَ، وهو أصلٌ صحيحٌ يدلُّ علىٰ زيادةٍ في شيء[1]، **واصطلاحًا**: الزيادة عن الحد المطلوب في الكلام والمخالَطَةِ والنومِ والأكلِ والشربِ والضحكِ، ولا شك أن هذه المباحاتِ لها حدٌّ معينٌ لو تجاوزه المرءُ رجع عليه بالضرر، وعلىٰ قلبه بالقسوة.

فالفضول يفسد القلبَ ويُقسيه، فمَن زاد في النوم أو الخلطة أو الطعام أو الضحك؛ حصلت له الغفلةُ، وربما تبلَّد القلبُ أو مات، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قسوة القلب من أربعة أشياءَ إذا جاوزت قدرَ الحاجة: الأكل، والنوم، والكلام، والمخالطة»[2]. والنصوص في ذم الفضول كثيرة، عَنِ ابْنِ عُمَرَ قَالَ: تَجَشَّأَ رَجُلٌ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: «**كُفَّ عَنَّا جُشَاءَكَ، فَإِنَّ أَكْثَرَهُمْ شِبَعًا فِي الدُّنْيَا، أَطْوَلُهُمْ جُوعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ**»[3]، قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «والنَّهْيُ عن الجُشَاءِ نهيٌ عن سببه، وهو الشِبَع، وهو مذموم طبًّا وشرعًا، كيف وهو يقرِّب من الشيطان، ويهيِّج النفسَ إلىٰ الطغيان، والجوع يضيِّق مجاريَ الشيطان، ويَكسر سطوةَ النفس، فيندفع شرهُما»[4]. قال ابن القيم

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٨٤٨)، (ف ض ل).
،(٢) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٤٢).
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٢٤٧٨)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٣٤٣).
(٤) ينظر: فيض القدير، للمناوي، (م ٥ / ص ٨).

رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولو تغذَّى القلب بالمحبَّة لذهبت عنه بطنة الشهوات»(١)، فكثرة الطعام تؤدّي إلى البِطْنَة، والبطنة تُذهب الفطنةَ، وتقسِّي القلبَ، وتُورِث الغفلةَ، يقول الشافعي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «الشبع يُثقِل البدنَ، ويقسّي القلبَ، ويزيل الفطنةَ، ويَجلب النومَ، ويُضعِف صاحبَه عن العبادة»(٢)، وفي السنن: «**وَلاَ تُكْثِرِ الضَّحِكَ؛ فَإِنَّ كَثْرَةَ الضَّحِكِ تُمِيتُ الْقَلْبَ**»(٣)، أي: إنَّ كثرةَ الضحك تُورث قسوة القلبَ، والانغماسَ في اللهو، والغفلة عن الآخرة.

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**مَا رَأَيْتُ مِثْلَ النَّارِ نَامَ هَارِبُهَا، وَلَا مِثْلَ الْجَنَّةِ نَامَ طَالِبُهَا**»(٤)، وليس كثرة النوم والاسترسال في الكسل من سَمت الهارب من النار والطالب للجنة، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وأنفع النوم ما كان عند شدة الحاجة إليه»(٥)، ويقول ابن جماعة رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومن رام الفلاح في العلم، وتحصيل البُغية منه، مع كثرة الأكل والشرب والنوم؛ فقد رام مستحيلًا في العادة»(٦). وعَنْ جَابِرٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ، وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ أَحَاسِنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؛ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ وَالْمُتَفَيْهِقُونَ**» قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ؟ قَالَ:

---

(١) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ٧٧).
(٢) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، (م ٥١ / ص ٣٩٤).
(٣) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، باب من اتقى المحارم فهو أعبد الناس، برقم (٢٣٠٥)، وابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب الورع والتقوى، برقم (٤٢١٧)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٥٠٦).
(٤) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة جهنم عن رسول الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، باب منه، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٥٣).
(٥) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٦٠).
(٦) ينظر: تذكرة السامع، لابن جماعة، (ص ٧٤).



«**الْمُتَكَبِّرُونَ**»[١]، والثرثارون هم الذين يُكثرون الكلامَ تكلفًا وتشدقًا.

قال عطاء بن أبي رباح رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «إنَّ مَن قبلَكم كانوا يَعدون فضولَ الكلام ما عدا كتابَ الله، أو أمرًا بمعروف، أو نهيًا عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك التي لا بدَّ لك منها»[٢]، ويقول الفضيل بن عياض رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «خَصلتان تُقسيان القلبَ: كثرةُ الكلام، وكثرةُ الأكل»[٣]، قال المناوي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «كثرة الكلام تتولد عن أمرين: إما طلب رئاسة يريد أن يرى الناس علمَه وفصاحتَه، أو قلة العلم بما يجب عليه في الكلام»[٤].

وهكذا في باب الخِلطة، فيحذر الإنسانُ من سُرَّاق القلوب الذين يذكرونك بالدنيا، ويأخِّرونك عن الآخرة، فاختر صحبةَ الأبرار، وحاذر الأشرارَ، وفي الوصية النبوية عَنْ أَبِي سَعِيدٍ، أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**لا تُصَاحِبْ إِلَّا مُؤْمِنًا، وَلا يَأْكُلْ طَعَامَكَ إِلَّا تَقِيٌّ**»[٥]، فخُذ من الخلطة الحدَّ المناسِب، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وكم جَلَبَت خِلطةُ الناس من نقمة، ودفعت من نعمة، وأنزلت من محنة، وعطَّلت من منحة، وأحلَّت من رَزِّية، وأوقعت من بليِّة، وهل آفة الناس إلا الناس؟!»[٦].

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب البر والصلة عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في معالي الأخلاق، برقم (٢٠١٨)، وحسنه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٧٩١).
(٢) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٢٧٤).
(٣) ينظر: تاريخ دمشق، لابن عساكر، (م ٤٨/ ص ٤١٥).
(٤) ينظر: فيض القدير، للمناوي، (م ٤ / ص ٣٥٠).
(٥) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب ما جاء في صحبة المؤمن، برقم (٢٣٩٥)، وأبو داود في سننه، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، برقم (٤٨٣٢)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب، برقم (٣٠٣٦).
(٦) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٣/ ص ٢٦٤).



والمفسد الثاني من مفسدات القلوب في هذا البيت حبُّ الدنيا المحقَّرة، والدنيا نقيض الآخرة، وسُمِّيَت الدنيا لدنوِّها، والنسبة إليها دنياويّ[١] ودُنْيَويّ وَدُنْيِيّ. والقصد من هذا المفسِد حبُّ الدنيا وإيثارُها علىٰ الآخرة، وطولُ الأمل والحرص، وجعلُ الدنيا غايةً؛ مما يفتح أبوابَ الطغيان والشرور.

ولِحُبِّ الدنيا آثارٌ وخِيمة علىٰ القلب، ولو لم يكن له من الأثر إلا منازعة حب الآخرة ومحبة الله لكفىٰ، فكيف وهو بريد الطغيان، ويفتح أبوابَ الشيطان، ويُورِث الغفلةَ عن ذكر الرحمن، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ في مضارّ حبِّ الدنيا: «وأقلّ ما في حبِّها أنه يُلهي عن حبّ الله وذكرِه، ومن ألهاه مالُه عن ذكر الله فهو من الخاسرين، وإذا لها القلبُ عن ذكر الله سكنه الشيطانُ، وصرَّفه حيث أراد»[٢]، ويقول رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مفتاح كل خير: الرغبة في الله والدار الآخرة، ومفتاح كل شرّ: حب الدنيا وطول الأمل»[٣]، وعَنْ أَبِي مُوسَىٰ الْأَشْعَرِيِّ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**مَنْ أَحَبَّ دُنْيَاهُ أَضَرَّ بِآخِرَتِهِ، وَمَنْ أَحَبَّ آخِرَتَهُ أَضَرَّ بِدُنْيَاهُ، فَآثِرُوا مَا يَبْقَىٰ عَلَىٰ مَا يَفْنَىٰ**»[٤]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «فعشقها ومحبتها تضرّ بالآخرة، ولا بدّ، كما أنَّ محبة الآخرة تضرّ بالدنيا»[٥]، وقال رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «لا تَدخل محبةُ الله في قلبٍ فيه حبُّ الدنيا إلا كما يَدخل الجمل في سمِّ الخياط»[٦]، وعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٣٦٦)، (د ن و)، والقاموس المحيط، للفيروزآبادي، (ص١٦٥٦)، (د ن و).
(٢) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ٣٦).
(٣) ينظر: حادي الأرواح، لابن القيم، (ص ٤٨).
(٤) أخرجه أحمد في مسنده، أول مسند الكوفيين رضي الله عنهم، حديث أبي موسىٰ الأشعري رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٠٠١٠)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب، برقم (٣٢٤٧).
(٥) ينظر: عدة الصابرين، لابن القيم، (ص ١٨٨).
(٦) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٤٣).

صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ كَانَتِ الْآخِرَةُ هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ لَهُ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتِ الدُّنْيَا هَمَّهُ جَعَلَ اللهُ فَقْرَهُ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَفَرَّقَ عَلَيْهِ شَمْلَهُ، وَلَمْ يَأْتِهِ مِنَ الدُّنْيَا إِلَّا مَا قُدِّرَ لَهُ»[١]، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ومِن أبلغِ العذاب في الدنيا: تشتيتُ الشمل، وتفريقُ القلوب، وكونُ الفقر نُصبَ عينَي العبدِ لا يفارقه، ولولا سَكرة عشاق الدنيا بحبِّها لاستغاثوا من هذا العذاب»[٢].

كما أنَّ حبَّ الدنيا يُورِث موتَ القلب حتىٰ تصير العبادات ظاهريةً جوفاءَ لا أثرَ لها علىٰ المنهوم بدنياه، يقول ابن الجوزي رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مَثَل المحبِّ لها - ولو كابد العبادة - كمثل ناشر الأرز، يرفع رِجْلًا ويضع أخرىٰ، ومن مكانه لا يبرح، وكذلك الذي شُغل بحبِّ الدنيا قلبُه، وبالعبادة جوارحُه، تراه طولَ عمره يتقرَّب إلىٰ الله بظواهره، ويبعد عنه بقلبه»[٣]، وحسْب العاقل من الدنيا زادُ المسافر، وكنزُ القناعة، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «وقال الحسن: ابنَ آدم، لا تعلِّق قلبَك في الدنيا، فتُعَلِّقَه بشرِ معلَّق، اقطع حبالَها، وغلِّق أبوابَها، حسبُك يا بنَ آدمَ منها ما يبلغك المحلَّ»[٤].

ومن صور حبّ الدنيا حبُّ المالِ والجاهِ والشرف والشهرة[٥]، وطلب

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٢٤٦٥)، وابن ماجه في سننه، أبواب الزهد، باب الهم بالدنيا، برقم (٤١٠٥).

(٢) ينظر: عدة الصابرين، لابن القيم، (ص ١٨٦).

(٣) ينظر: التذكرة في الوعظ، لابن الجوزي، (ص ٣٦).

(٤) ينظر: عدة الصابرين، لابن القيم، (ص ١٩٣).

(٥) لقد أجاد وأفاد وأبدع الحافظ ابن رجب الحنبلي في الحديث عن هذه الآفات وأنواعها ومخاطرها في كتابه المدهش «شرح حديث (ما ذئبان جائعان)».

الدنيا بعمل الآخرة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]. وعَنِ كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ الْأَنْصَارِيِّ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «**مَا ذِئْبَانِ جَائِعَانِ أُرْسِلَا فِي غَنَمٍ بِأَفْسَدَ لَهَا مِنْ حِرْصِ الْمَرْءِ عَلَىٰ الْمَالِ وَالشَّرَفِ لِدِينِهِ**»[١]، يقول ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأخبر النبي صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنَّ حرص المرء علىٰ المال والشرف: إفسادُه لدينه ليس بأقلَّ من إفساد الذئبين لهذه الغنم؛ بل إما أنْ يكون مساويًا، وإما أن يكون أكثر، يشير إلىٰ أنه لا يَسْلَمُ من دين المسلم مع حرصه علىٰ المال والشرف في الدنيا إلا القليل، كما أنه لا يسلم من الغنم مع إفساد الذئبين المذكورين فيها إلا القليل، فهذا المَثَل العظيم يتضمن غاية التحذير من شرّ الحرص علىٰ المال والشرف في الدنيا»[٢]، قال مطرِّف رَحِمَهُ اللَّهُ: «إنَّ أقبحَ الرغبة في الدنيا أنْ تُطلب بعمل الآخرة»[٣]، يقول ابن رجب رَحِمَهُ اللَّهُ: «وأصل محبة المال والشرف حبُّ الدنيا، وأصل حب الدنيا اتباعُ الهوىٰ»[٤].

والمفسد الثالث من مفسدات القلوب في هذا البيت هو العشق، والعشق هو: فَرط الحب، وتجاوُز حدِّ المحبة، تقول: عَشِق يعشق عِشقًا وعَشقًا، ويقال: امرأة عاشق أيضًا[٥]، قال ابن تيمية رَحِمَهُ اللَّهُ: «المعروف من استعمال

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه، أبواب الزهد عن رسول الله صَلَّىٰ اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، باب، برقم (٢٣٧٦)، وصححه الألباني في صحيح الترغيب، برقم (١٧١٠).
(٢) ينظر: شرح حديث: (ما ذئبان جائعان)، لابن رجب، (ص ٣٩).
(٣) ينظر: الشعب، للبيهقي، برقم (٦٩٣٠).
(٤) ينظر: شرح حديث: (ما ذئبان جائعان)، لابن رجب، (ص ٧١).
(٥) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٧٧٥)، (ع ش ق)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٠ / ص ٢٥١)، (ع ش ق).



هذا اللفظ في اللغة إنما هو في محبة جنس النكاح، مثل حب الآدمي مثله ممن يُستمتع به، من امرأة أو صبي، فلا يكاد يُستعمل هذا اللفظُ في محبة الإنسان لولده وأقاربه ووطنه وماله ودينه وغيرِ ذلك، ولا في محبةِ آدميٍّ لغير صورته، مثل محبة الآدمي لعلمه ودينه وشجاعته وكرمه وإحسانه ونحو ذلك»[١]. وفي هذا الكلام فائدة لطيفة، وهو بيان خطأ مَن أطلق العشقَ في العلاقة بين العبد والربّ!

فالعشق المحرّم مِن أخطر المسالك؛ إذ إنّه يَؤول بالقلب إلىٰ المهالك، بل هو سُكرٌ للقلوب، قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ۝٧٢﴾ [الحجر: ٧٢]، وبوابة الفجور والزنا، قال صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: «**إِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَىٰ ابْنِ آدَمَ حَظَّهُ مِنَ الزِّنَا، أَدْرَكَ ذَلِكَ لا مَحَالَةَ، فَزِنَا الْعَيْنِ النَّظَرُ، وَزِنَا اللِّسَانِ الْمَنْطِقُ، وَالنَّفْسُ تَمَنَّىٰ وَتَشْتَهِي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ ذَلِكَ كُلَّهُ وَيُكَذِّبُهُ**»[٢]، يقول ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «وهو -لَعَمْر الله- الداءُ العُضال، والسمّ القاتل الذي ما عَلَق بقلبٍ إلا وعزّ علىٰ الورىٰ خلاصُه من إساره، ولا اشتعلت نارُه في مهجة إلا وصَعب علىٰ الخلق تخليصُها من ناره»[٣].

ومفاسد العشق علىٰ القلوب كثيرة، من أخطرها ما يصل إلىٰ درجة التعبُّد، حتىٰ يصير العاشق عبدًا لمعشوقِه، ويقع في شِرك المحبة، يقول ابن القيم رَحِمَهُٱللَّهُ: «فإنَّ عِشق الصور المحرَّمة نوع تعبد لها، بل هو من أعلىٰ أنواع التعبد، ولا سيما إذا استولىٰ علىٰ القلب، وتمكَّن منه؛ صار تتيُّمًا،

---

(١) ينظر: قاعدة في المحبة، لابن تيمية، (ص ٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الاستئذان، باب زنا الجوارح دون الفرج، برقم (٦٢٤٣)، ومسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب قدر علىٰ ابن آدم حظه من الزنا وغيره، برقم (٢٦٥٧).

(٣) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ٣١٧).

والتتيم التعبُّد، فيصير العاشق عابدًا لمعشوقِه، وكثيرًا ما يغلب حبَّه وذكرَه والشوقَ إليه، والسعيَ في مرضاته، وإيثارَ محابِّه على حب الله وذكره، والسعي في مرضاته، بل كثيرًا ما يذهب ذلك من قلب العاشق بالكلية، ويصير متعلِّقًا بمعشوقه من الصور، كما هو مُشاهَد، فيصير المعشوق هو إلهه من دون الله عَزَّوَجَلَّ يقدم رضاه وحبَّه على رضا الله وحبِّه، ويتقرب إليه ما لا يتقرب إلى الله، وينفق في مرضاته ما لا ينفقه في مرضاة الله، ويتجنب من سخطه ما لا يتجنب من سخط الله تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ، فيصير آثَرَ عنده من ربه: حبًّا، وخضوعًا، وذلًّا، وسمعًا، وطاعة»[(١)]. وقال رَحِمَهُٱللَّهُ عن العشق: «فإنه يفسد القلبَ بالذات، وإذا فسد القلبُ فسدت الإراداتُ والأقوالُ والأعمالُ، وفسد ثغرُ التوحيد»[(٢)]، يقول ابن الجوزي رَحِمَهُٱللَّهُ في تعدد مفاسد العشق: «وأما ضرر العشق في الدنيا فإنه يُورِث الهمَّ الدائمَ، والفكرَ اللازم، والوسواس والأرقَ، وقلةَ المطعم، وكثرةَ السهر، ثم يتسلط على الجوارح فتنشأ الصُّفرةُ في البدن، والرِّعدة في الأطراف، واللجلجة في اللسان، والنُّحول في الجسد، فالرأي عاطل، والقلب غائب عن تدبير مصلحته، والدموع هواطل، والحسرات تَتَابَعُ، والزفَرات تتوالى، والأنفاس لا تمتدّ، والأحشاء تضطرم، فإذا غُشِّي على القلب إغشاء تامًا أُخرجت إلى الجنون، وما أقربه حينئذ من التلف! هذا وكم يجني من جناية على العرض، ووهنِ الجاه بين الخَلْقِ! وربما أُوقِعَ في عقوباتِ البدن وإقامةِ الحدّ»[(٣)].

ولابن تيمية رَحِمَهُٱللَّهُ كلامٌ نافعٌ في الردِّ على من يُبرِّر العشق ويذكر محاسنَه، يقول: «فإنَّ الذي يُورِثه العشقُ من نقص العقل والعلم، وفساد الخُلُق والدين،

(١) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ١ / ص ٦٤).
(٢) ينظر: الداء والدواء، لابن القيم، (ص ٣١٣).
(٣) ينظر: ذم الهوى، لابن الجوزي، (ص ٢٤٦).



والاشتغال عن مصالح الدين والدنيا: أضعافُ ما يتضمنه من جنس المحمود، وأصدقُ شاهد علىٰ ذلك ما يُعرف من أحوال الأمم وسماع أخبار الناس في ذلك، فهو يُغْنِي عن معاينة ذلك وتجريبِه، ومن جرَّب ذلك أو عاينه اعتبَر بما فيه كفاية، فلم يوجد قطُّ عشقٌ إلا وضررُه أعظمُ من منفعته»[١]. وأختم بكلامٍ بديعٍ لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ حولَ مغبَّة عشق الصور، قال: «وَتِلْكَ -لَعَمْرُ الله- الفتنةُ الكبرىٰ، والبليَّة العظمىٰ التي استعبدت النفوسَ لغير خَلاقِها، وملَّكت القلوبَ لمن يسومها الهوانَ من عشاقها، وألقت الحرب بين العشق والتوحيد، ودعت إلىٰ مُوالاةِ كلِّ شيطان مَريد، فصيَّرت القلبَ للهوىٰ أسيرًا، وجعلته عليه حاكمًا وأميرًا، فأوسعت القلوبَ محنةً، وملأتها فتنةً، وحالت بينها وبين رُشدها، وصَرَفتها عن طريق قصدها.

ونادت عليها في سُوق الرقيق فباعتها بأبخسِ الأثمان، وأعاضتها بأخسِّ الحظوظ وأدنىٰ المطالب عن العالي من غُرف الجِنان، فضلًا عما هو فوق ذلك من القرب من الرحمن، فسكنت إلىٰ ذلك المحبوبِ الخسيس، الذي ألَمُها به أضعاف لذتها، ونَيْلُه والوصولُ إليه أكبرُ أسباب مَضرّتها، فما أوشكه حبيبًا يستحيل عدوًّا عن قريب، ويتبرأ منه محبُّه لو أمكنه حتىٰ كأنه لم يكن له بحبيب، وإنْ تمتَّع به في هذه الدار فسوف يجد به أعظمَ الألم بعد حين، لا سيما إذا صار الأخِلاء يومئذ بعضهم لبعض عدوًّا إلا المتقين.

فيا حسرةَ المحبّ الذي باع نفسَه لغير الحبيب الأولِ بثمنٍ بخس، وشهوةٍ عاجلة، ذهبت لذتُها، وبقيت تبِعَتُها، وانقضت منفعتُها، وبقيت مضرتُها، فذهبت الشهوة، وبقيت الشِّقوة، وزالت النَّشوة، وبقيت الحسرة، فوا رحمتاه لصَبٍّ جمع له بين الحسرتين، حسرةِ فوت المحبوب الأعلىٰ والنعيمِ المقيم،

---

(١) ينظر: الاستقامة، لابن تيمية، (م ١ / ص ٤٥٩).

وحسرةِ ما يقاسيه من النَّصَب في العذاب الأليم»[١].

والمفسد الرابع من مفسدات القلوب في هذا البيت الوسوسة، وهي في **اللغة**: من وسوس يوسوس، والوسوسة صوتٌ خفيٌّ غيرُ رفيع، يقال لصوت الحُلِيِّ: وسواس، وإغواء الشيطان: وسواس، يقال: وسوسَتْ إليه نفسُه وسوسةً ووسواسًا[٢]. **وفي الاصطلاح**: ما يلقيه الشيطانُ في القلب[٣]، وقيل: ما يقع في النفس من عمل الشر وما لا خير فيه[٤].

والوساوس نوعان: «إِمَّا مِنْ قَبِيلِ الْحُبِّ مِنْ أَنْ يَخْطِرَ بِالْقَلْبِ مَا قَدْ كَانَ، أَوْ مِنْ قَبِيلِ الطَّلَبِ، وَهُوَ أَنْ يَخْطِرَ فِي الْقَلْبِ مَا يُرِيدُ أَنْ يَفْعَلَهُ، وَمِنْ الْوَسَاوِسِ مَا يَكُونُ مِنْ خَوَاطِرِ الْكُفْرِ وَالنِّفَاقِ، فَيَتَأَلَّمُ لَهَا قَلْبُ الْمُؤْمِنِ تَأَلُّمًا شَدِيدًا»[٥]. والموسوس أيضًا نوعان «إنسٌ وجنٌّ، فإن الوسوسة هي الإلقاء الخفيُّ في القلب، وهذا مشترك بين الجنّ والإنس، وإنْ كان إلقاء الإنسيِّ وسوستَه إنما هي بواسطة الأُذُنَ، والجنيُّ لا يحتاج إلىٰ تلك الواسطةِ؛ لأنه يَدخل في ابن آدم، ويجري منه مجرىٰ الدم»[٦].

ولا يزال الشيطان بالمرء يوسوس له حتىٰ تصير نفسُه حقيرةً صغيرةً مستسلمةً لوسواسه، وهذا ما أشار إليه الناظم بالوسوسة المصغِّرة. والوسواس شر عظيم أُمرنا بالاستعاذة منه، قال تَبَارَكَوَتَعَالَىٰ: ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ

(١) ينظر: إغاثة اللهفان، لابن القيم، (م ٢ / ص ١٢١).
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١٠٧٩)، (و س و س)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ٦ / ص ٤٨٣٠)، (و س و س).
(٣) ينظر: بصائر ذوي التمييز، للفيروزآبادي، (م ٥ / ص ٢٠٨).
(٤) ينظر: الكليات، للكفوي، (ص ٩٤١).
(٥) ينظر: الفتاوىٰ الكبرىٰ، لابن تيمية، (م ٢ / ص ٢٢٣).
(٦) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٢ / ٢٦٦).

الْخَنَّاسِ ﴿٤﴾﴾ [الناس: ٤]، ولم يزل إبليسُ يوسوس لآدم عَلَيْهِ السَّلَامُ حتىٰ أُخرج من الجنة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ﴿١٢١﴾﴾ [طه: ١٢٠، ١٢١]، وكلما عظُم الإيمانُ في الإنسان كان عُرْضة لوسوسة الشيطان، فعَنْ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْوَسْوَسَةِ؛ قَالَ: تِلْكَ مَحْضُ الْإِيمَانِ»[١].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ مبينًا خطرَ الوسوسة علىٰ القلب: «﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ﴾: يعمُّ كلَّ شره، ووصفه بأعظمِ صفاته وأشدِّها شرًّا، وأقواها تأثيرًا وأعمِها فسادًا، وهي الوسوسة التي هي مبادئ الإرادة، فإنَّ القلبَ يكون فارغًا من الشرِّ والمعصيةِ فيوسوس إليه، ويخطُر الذنبُ بباله، فيصوره لنفسه ويمنِّيه، ويُشهِّيه، فيصير شهوة، ويُزيِّنها له ويحسِّنها، ويخيِّلها له في خياله، حتىٰ تميل نفسُه إليه فيصير إرادة، ثم لا يزال يمثل له ويخيِّل ويمنِّي ويشهِّي وينسِّي علمه بضررها، ويطوي عنه سوءَ عاقبتها، فيَحُول بينه وبين مطالعته، فلا يرىٰ إلا صورة المعصية والتذاذِه بها فقط، وينسىٰ ما وراء ذلك، فتصير الإرادةُ عزيمةً جازمة، فيشتد الحرصُ عليها من القلب»[٢]، وقال رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأصلُ كل معصية وبلاء إنما هو الوسوسة»[٣].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإيمان، باب بيان الوسوسة فِي الإيمان وما يقوله من وجدها، برقم (١٣٣).
(٢) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٢ / ٢٧٥).
(٣) ينظر: المصدر السابق، (م٢ / ٢٥٨).

والعُجْبُ والرِّياءُ ثم التَّرَفُ	إنْ مسّتِ القلبَ أتاهُ التلفُ

يذكر الناظم في هذا البيت ما تبقّى من مفسدات القلوب:

وأولها العُجْب، وهو في **اللغة**: الزّهوُ والكِبْر، ورجلٌ معجبٌ: مزهوٌّ بما يكون منه حَسَنًا أو قبيحًا، وقد أُعجِب فلانٌ بنفسه، إذا ترفّع وتكبّر[١]، **والعجب اصطلاحًا**: هو عبارة عن تصور استحقاق الشخص رتبةً لا يكون مستحِقًّا لها[٢].

وقد حذر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ من العجب، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨]. قال الحافظ ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «مختال معجَب بنفسه»[٣]، كما بيّن الله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ أنَّ الإعجابَ بالكثرة أحدُ أسباب الهزيمة يومَ حُنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، وَقَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **«بَيْنَمَا رَجُلٌ يَجُرُّ إِزَارَهُ مِنَ الْخُيَلَاءِ خُسِفَ بِهِ، فَهُوَ يَتَجَلْجَلُ فِي الْأَرْضِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»**[٤]، قال أبو العباس القرطبي: «يفيد هذا الحديث تركَ الأمن من تعجيلِ المؤاخَذَة بالذنوب، وأنَّ عُجبَ المرء بنفسه وثوبه وهيئته حرامٌ

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٧٤٣)، (ع ج ب)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١/ ص ٥٨٢)، (ع ج ب)، وتاج العروس، للزبيدي، (م ٣/ ص ٣١٨)، (ع ج ب).
(٢) ينظر: التعريفات، للجرجاني، (ص ١٤٧).
(٣)) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٦ / ص ٣٣٩)
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حدثنا أبو اليمان، برقم (٣٤٨٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب اللباس والزينة، باب تحريم التبختر في المشي مع إعجابه بثيابه، برقم (٢٠٨٨).

وكبيرة»(١)، وفي الحديث أيضًا: «وَأَمَّا الْمُهْلِكَاتُ: فَشُحٌّ مُطَاعٌ، وَهَوًىٰ مُتَّبَعٌ، وَإِعْجَابُ الْمَرْءِ بِنَفْسِهِ»(٢)، وعَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَوْ لَمْ تَكُونُوا تُذْنِبُونَ لَخَشِيتُ عَلَيْكُمْ مَا هُوَ أَكْثَرُ مِنْهُ الْعُجْبَ»(٣)، قال المناوي رَحِمَهُ اللَّهُ: «لأنَّ العاصي يعترف بنقصه، فترُجَىٰ له التوبةُ، والمعجب مغرورٌ بعمله، فتوبتُه بعيدة»(٤).

قال مسروق رَحِمَهُ اللَّهُ: «كفىٰ بالمرء علمًا أنْ يَخشىٰ الله، وكفىٰ بالمرء جهلًا أنْ يُعَجب بعمله»(٥)، وقال علي بن ثابت رَحِمَهُ اللَّهُ: «المال آفتُه التبذير والنهب، والعلم آفته الإعجاب والغضب»(٦)، وعن خالد بن يزيد رَحِمَهُ اللَّهُ قال: «إذا رأيت الرجلَ لَجُوجًا، مُمَارِيًا، معجَبًا بنفسه، فقد تمَّتْ خسارتُه»(٧)، فالعُجب مفسِدٌ للقلب والعمل، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «لا شيء أفسد للأعمال من العُجْبِ ورؤيةِ النفس»(٨).

وما أجمل وأدق ما ذكره ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ حول ما يَحُولُ دون وصول العمل من القلب إلىٰ الربّ؛ قوله: «فَبَيْنَ الْعَمَلِ وَبَيْنَ الْقَلْبِ مَسَافَةٌ، وَفِي تِلْكَ الْمَسَافَةِ قُطَّاعٌ تَمْنَعُ وَصُولَ الْعَمَلِ إِلَىٰ الْقَلْبِ، فَيَكُونُ الرَّجُلُ كَثِيرَ الْعَمَلِ، وَمَا

---

(١) ينظر: طرح التثريب، للعراقي، (م ٨ / ص ١٦٩).
(٢) أخرجه البزار في مسنده، مسند أنس بن مالك، البصريون عن أنس، زياد النميري عنه، برقم (٦٤٩١)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب، برقم (٥٣).
(٣) أخرجه البزار في مسنده، مسند أنس بن مالك، البصريون عن أنس، من حديث ثابت عن أنس، برقم (٦٩٣٦)، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب، برقم (٢٩٢١).
(٤) فيض القدير، للمناوي، (م ٥ / ص ٤٢٢).
(٥) ينظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، (م ١ / ص ١٤٣).
(٦) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ١٤٣).
(٧) ينظر: مساوئ الأخلاق، للخرائطي، (ص ٥٦٧).
(٨) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ١٥٢).

وَصَلَ مِنْهُ إِلَىٰ قَلْبِهِ مَحَبَّةٌ، وَلَا خَوْفٌ، وَلَا رَجَاءٌ، وَلَا زُهْدٌ فِي الدُّنْيَا، وَلَا رَغْبَةٌ فِي الْآخِرَةِ، وَلَا نُورٌ يُفَرِّقُ بِهِ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَعْدَائِهِ، وَبَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَلَا قُوَّةٌ فِي أَمْرِهِ، فَلَوْ وَصَلَ أَثَرُ الْأَعْمَالِ إِلَىٰ قَلْبِهِ لَاسْتَنَارَ وَأَشْرَقَ، وَرَأَىٰ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ، وَمَيَّزَ بَيْنَ أَوْلِيَاءِ اللهِ وَأَعْدَائِهِ، وَأَوْجَبَ لَهُ ذَلِكَ الْمَزِيدَ مِنَ الْأَحْوَالِ.

ثُمَّ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ الرَّبِّ مَسَافَةٌ، وَعَلَيْهَا قُطَّاعٌ تَمْنَعُ وَصُولَ الْعَمَلِ إِلَيْهِ، مِنْ كِبْرٍ، وَإِعْجَابٍ، وَإِدْلَالٍ، وَرُؤْيَةِ الْعَمَلِ، وَنِسْيَانِ الْمِنَّةِ، وَعِلَلٍ خَفِيَّةٍ لَوِ اسْتَقْصَىٰ فِي طَلَبِهَا لَرَأَىٰ الْعَجَبَ»[1].

والمفسد الثاني من مفسدات القلوب في هذا البيت الرياء، وهو في **اللغة**: من الرؤية والنظر والإبصار، يقال: فِعله رياء؛ أي: لِيَراه الناس، وقريب منه السُمعة: مشتقة من السماع والإسماع، وهي ما يُسمعُ به من صيت، يقال: فعل ذلك رِياءً وسُمْعة؛ أي ليراه الناسُ ويسمعوه[2]. **والرياء في الاصطلاح**: إظهار العبادة بقصد رؤية الناس ليحْمَد عليها[3]. والسُمعة في الاصطلاح: إظهار العبادةِ بقصد سماعِ الناس ليُحمد عليها[4]، **والفرق بين الرياء والسمعة**: أنَّ الرياء يتعلَّق بحاسة البصر، والسمعة تتعلق بحاسة السمع[5]، وقد جُمعا في الحديث، قَالَ النَّبِيُّ صَلَّىٰ اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَنْ سَمَّعَ سَمَّعَ اللهُ بِهِ، وَمَنْ يُرَائِي يُرَائِي اللهُ بِهِ»[6].

---

(١) ينظر: مدراج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٣٨)، (س م ع).

(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٤٣٦)، ولسان العرب، لابن منظور، (م ١٤/ ص ٢٩٦)، (س م ع)، والصحاح، للجوهري، (م ٦ / ص ٢٣٤٨)، (س م ع).

(٣) ينظر: فتح الباري، لابن حجر، (م ١١ / ص ٣٤٤).

(٤) ينظر: الدين الخالص، للقنوجي، (م ٢ / ص ٣٧٩).

(٥) ينظر: فتح الباري، لابن حجر، (م ١١ / ص ٣٣٦).

(٦) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الرقاق، باب الرياء والسمعة، برقم (٦٤٩٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، برقم (٢٩٨٦).



والرياء من الشرك الأصغر الذي خاف النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ على أمته منه، فعَنْ مَحْمُودِ بْنِ لَبِيدٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «**إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمُ الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ**»، قَالُوا: وَمَا الشِّرْكُ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: «**الرِّيَاءُ**»[1]. قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فأما نجاسةُ الشرك فهي نوعان: نجاسةٌ مغلَّظة، ونجاسةٌ مخفَّفة، فالمغلظة: الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى، فإنَّ الله لا يغفر أنْ يُشرَك به، والمخففة: الشرك الأصغر: كيَسيرِ الرياء، والتصنُّعِ للمخلوق»[2].

ويدخل في الرياء النفاقُ الاعتقاديُّ، وهو إظهار الإيمان، وإبطانُ الكفر، ومنهم المنافقون الذين وصفهم الله بقوله: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلَاةِ قَامُوا كُسَالَى يُرَاءُونَ النَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾﴾ [النساء: ١٤٢].

والرياء إنْ لم يدفعْه الإنسان أفسد عمله، وقد أخبر الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عمن قصد بعمله الدنيا بقوله: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦]، و أهل الرياء هم أولُ مَن تسعّر بهم النار، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أنه قال: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «**إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَىٰ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ: رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّىٰ اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ**

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند الأنصار رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، حديث محمود بن لبيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (٢٤٠٦٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٩٥٠).

(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٥٩).



أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ الْعِلْمَ وَعَلَّمَهُ، وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ وَعَلَّمْتُهُ، وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ حَتَّىٰ أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ، هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَىٰ وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[١].

والرياء له صورٌ كثيرةٌ تفسِد القلوبَ يقول يوسف بن الحسين: «أعزُّ شيء في الدنيا الإخلاصُ، وكم أجتهدُ في إسقاط الرياء عن قلبي، فكأنه ينبت على لونٍ آخرَ»[٢].

يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ متحدثًا عن أمراض القلوب -وقد سبق معنا-: «ثُمَّ إِنَّ الْقَلْبَ يَعْرِضُ لَهُ مَرَضَانِ عَظِيمَانِ، إِنْ لَمْ يَتَدَارَكْهُمَا الْعَبْدُ تَرَامَيَا بِهِ إِلَىٰ التَّلَفِ وَلَا بُدَّ، وَهُمَا: الرِّيَاءُ، وَالْكِبْرُ، فَدَوَاءُ الرِّيَاءِ بِـ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، وَدَوَاءُ الْكِبْرِ بِـ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، وَكَثِيرًا مَا كُنْتُ أَسْمَعُ شَيْخَ الْإِسْلَامِ ابْنَ تَيْمِيَّةَ -قَدَّسَ اللهُ رُوحَهُ- يَقُولُ: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تَدْفَعُ الرِّيَاءَ، ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تَدْفَعُ الْكِبْرِيَاءَ»[٣]. ويقول ابن رجب رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «سلامة الصدور من الرياء والغلِّ والحسدِ والغشِّ والحقدِ، وتطهيرُها من ذلك أفضلُ؛ من التطوع بأعمالِ

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الإمارة، باب من قاتل للرياء والسمعة استحق النار، برقم (١٩٠٥).
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ٢ / ص ٩٦).
(٣) ينظر: المصدر السابق، (م ١ / ص ٨٧).



الجوارح، وكثرة أعمال الجوارح مع تدنيس القلب بشيء من هذه الأوضار لا يزكو، وهو كزرعٍ في أرضٍ كثيرةِ الآفات لا يكاد يسلم ما ينبت فيها»(١).

والمفسد الثالث من مفسدات القلوب في هذا البيت التَّرف، وهو في اللغة: من التنعم والترَفُّهِ(٢)، والقصد هنا التوسعُ في النعمة، يقال: أترفُ فلانٌ فهو مُترف(٣). **واصطلاحًا**: مجاوَزَة حدِّ الاعتدال في النعمة، والإغراق في الملذات.

وقد ذمَّ الله الترفَ في كتابه، فقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦]، قال ابن جرير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «اتبعوا ما أُنظِروا فيه من لذات الدنيا، فاستكبروا عن أمر الله، وتجبَّروا وصدُّوا عن سبيله، وذلك أنَّ المترَف في كلام العرب هو: المنعَّم قد غُذِّي باللذات»(٤)، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١ - ١٣]، قال ابن كثير رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «قوله ﴿لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَىٰ مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ﴾: هذا تهكُّم بهم قدرًا، أي قيل لهم قدرًا: لا تركضوا هاربين من نزول العذاب، وارجعوا إلىٰ ما كنتم فيه، من النعمة والسرور والمعيشة والمساكن»(٥).

بل ربما جرَّ أهلُ الترف الأذىٰ والهلاكَ لغيرهم، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا

---

(١) ينظر: مجموع الرسائل، شرح حديث شداد، لابن رجب، (م ١ / ص ٣٨٤)
(٢) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ١٧٠)، (ت ر ف).
(٣) ينظر: المفردات، للراغب، (ص ١٦٦).
(٤) ينظر: جامع البيان، للطبري، (م١٥ / ص ٥٢٩).
(٥) ينظر: تفسير القرآن العظيم، لابن كثير، (م ٥ / ص ٣٣٥).



تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦]، وكان صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينهىٰ أصحابه عن الإرفاهِ، ويخاف عليهم زهرةَ الدنيا وملاذتِها، لما لذلك من آثار في القلوب، فَعَن أبي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَلَسَ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَىٰ الْمِنْبَرِ، وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، فَقَالَ: «**إِنِّي مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا**»»[(١)]، وعَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ بُرَيْدَةَ: أَنَّ رَجُلاً مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحَلَ إِلَىٰ فَضَالَةَ بْنِ عُبَيْدٍ وَهُوَ بِمِصْرَ، فَقَدِمَ عَلَيْهِ فَقَالَ: أَمَا إِنِّي لَمْ آتِكَ زَائِرًا، وَلَكِنِّي سَمِعْتُ أَنَا وَأَنْتَ حَدِيثًا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَجَوْتُ أَنْ يَكُونَ عِنْدَكَ مِنْهُ عِلْمٌ. قَالَ: مَا هُوَ؟ قَالَ: كَذَا وَكَذَا، قَالَ: وَمَا لِي أَرَاكَ شَعِثًا وَأَنْتَ أَمِيرُ الأَرْضِ؟ قَالَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَنْهَانَا عَنْ كَثِيرٍ مِنَ الإِرْفَاهِ. قَالَ: فَمَا لِي لَا أَرَىٰ عَلَيْكَ حِذَاءً؟ قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَأْمُرُنَا أَنْ نَحْتَفِيَ أَحْيَانًا»[(٢)].

قال ابن القيم رَحِمَهُ اللهُ: «إذا زهدت القلوبُ في موائدِ الدنيا، قعدت علىٰ موائدِ الآخرة بين أهل تلك الدعوةِ، وإذا رضيَتْ بموائد الدنيا، فاتتها موائدُ الآخرة»[(٣)].

وجاء الشطر الثاني من هذا البيتِ للإشارة إلىٰ أنَّ هذه المفسداتِ إذا خالطت القلوبَ كان سببًا لتلفِها وعطبِها، وهكذا سائر المفسدات فإنها تُهلك القلوبَ وتميتُها.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامىٰ، برقم (١٤٦٥)، ومسلم في صحيحه، كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، برقم (١٠٥٢).

(٢) أخرجه أبو داود في سننه، واللفظ له، كتاب الترجل، برقم (٤١٦٠)، والنسائي في سننه، كتاب الزينة، باب الترجل غبًّا، برقم (٥٠٧٣)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة، برقم (٥٠٢).

(٣) ينظر: الفوائد، لابن القيم، (ص ٩٨).

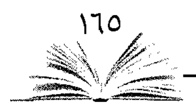


فاحرصْ علىٰ لُزومِهِ دربَ الهدىٰ ... وداوِهِ كي لا يميلَ للرَّدىٰ

ختم الناظم المفسدات بهذا البيتِ الذي يحوِي علىٰ وصيةٍ عظيمة، وهي الحرص علىٰ إلزام القلوب دربَ الهدىٰ، بالحفاظ عليه من المفسدات والمقسِّيات والأمراض، وهي من الأمور التي تحتاج إلىٰ مجاهدة، فإنَّ القلبَ يتقلَّب، ويتأثر بالمؤثِّرات والعوارِض والفتن، والتوفيق للثبات والمحافظة علىٰ القلب نعمةٌ عظيمة. ثم أشار إلىٰ مداواة القلب، فإن القلب قد يَمرض ويَضعُف ويقسو، والكيِّس من يُبادِر للعلاج والدواء قبل حلول العطب، والسقوط في مهاوي الرَّدَىٰ، والعَجَبُ مِمَّن يبادر ويعالج الأمراضَ البدنيَّةَ، ويَغْفَل عن الأمراض القلبية، ومن البخل أنْ تمرض بأشدِّ الأمراضِ ولا تتداوَىٰ، وما أخطر تأخيرَ العلاج عن وقته، لا سيما في باب أمراض القلوب، يقول ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ محذرًا من آفتين: «حذارِ حذارِ من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: ردّ الحق لمخالفته هواك، فإنك تعاقَب بتقليب القلب وردّ ما يَرِدُ عليك من الحقِّ رأسًا ولا تقبله إلا إذا برز في قالبِ هواك. قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠]، فعاقبهم علىٰ ردّ الحق أولَ مرّةٍ بأنْ قلَّب أفئدتَهم وأبصارَهم بعد ذلك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقتُه، فإنك إنْ تهاونت به ثبَّطك الله وأقعدك عن مَراضيه وأوامره عقوبةً لك؛ قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿فَإِنْ رَجَعَكَ اللَّهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَلَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]،

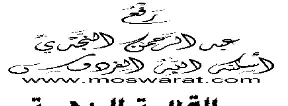


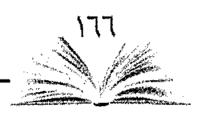
فمَن سَلِم من هاتين الآفتين والبَلِيَّتَين العظيمتين فليَهنه السلامة»[1].

ويجدر بالعاقل أن يفتّشَ في قلبه بين الحين والآخر، ويميز الأعمالَ، وينظر في صدقِها، ويتدارك العللَ الخفيةَ وحظوظَ النفس، قال ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «ولا يميز هذا إلا أهلُ البصائر وأطباءُ القلوب العالمون بأدوائها وعللها»[2].

📖📖📖

(١) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٣ / ص ١٨٠).
(٢) ينظر: مدارج السالكين، لابن القيم، (م ١ / ص ٤٣٩).

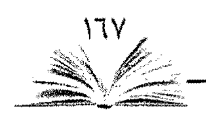




الخاتمة

حافظْ علىٰ جواهرِ الفؤادِ زادُكَ يومَ الحشرِ والمعادِ

شرع الناظم في ذكر خاتمة النظم، وجاء البيت الأول من الخاتمة وصيةً بالمحافظة علىٰ جواهر الفؤاد، أي: المحافظة علىٰ الأعمال القلبية، والحرص عليها، فهي الجوهرُ الحقيقيّ، والدرُّ الأصليّ. وقد بيَّن في الشطر الثاني الثمرةَ والفائدةَ من المحافظة علىٰ أعمال القلوب، فهي الزادُ الحقيقيُّ يوم القيامة، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾ [الشعراء: ٨٨، ٨٩]، وسلامة القلوب تكون بتحقيق الأعمال القلبية والحرص عليها، وقال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة: ١٩٧]، فأشار جلَّ في علاه إلىٰ أنَّ خيرَ الزاد التقوىٰ، وهو من أعمال القلوب.



ثم استعنْ عليهِ بالدعاءِ	وردِّدنْ يا مُجْزِلَ العطاءِ
يا سابغَ الخيراتِ للعبيدِ	ثَبِّتْ قلُوبَنا علىٰ التوحيدِ

اشتمل البيت الثاني والثالث من الخاتمة علىٰ اللجوء والاستعانة بالله تعالىٰ، والثناءِ عليه، وطلبِ الدعاء منه، وما أحوجَ العبد الفقير لسؤال الربّ الكريم! فيطلب الناظم من ربه، مردِّدًا كلماتِ الثناء بين يدَي الدعاء، فهو الذي يُجزل العطياتِ، ويُسبغ الخيراتِ، ويُعطي عبادَه من المكرُمات، يسأله ثباتَ القلب علىٰ التوحيد، وهو من أجلِّ الغايات، وأسمىٰ الأمنيات، وقد كان النبي ﷺ يسأل ربَّه ثباتَ القلب، عن عَبْدِ اللهِ بْنَ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ: أَنَّهُ سَمِعَ رَسُولَ اللهِ ﷺ يَقُولُ: «**إِنَّ قُلُوبَ بَنِي آدَمَ كُلَّهَا بَيْنَ إِصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ، كَقَلْبٍ وَاحِدٍ يُصَرِّفُهُ حَيْثُ يَشَاءُ**»، ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «**اللَّهُمَّ مُصَرِّفَ الْقُلُوبِ صَرِّفْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ طَاعَتِكَ**»(١).

وأجلُّ الطاعات توحيدُ الله، ومن مات علىٰ التوحيد ظفر بالثبات في القبر وما بعده، فعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: «**الْمُسْلِمُ إِذَا سُئِلَ فِي الْقَبْرِ: يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ:** ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾ [إبراهيم: ٢٧]»(٢)، ولذلك خاف السلفُ من الخواتيم، ومِن تغيُّرِ القلوب وموتِها علىٰ غيرِ التوحيد، وهذا السؤالُ والدعاءُ مناسِب لموضوع النَّظم الذي يتعلق بالقلوب، وأجلُّ ما يكون في القلوب إفرادُ الله بالتوحيد، وطهارتُها من التنديد.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب تصريف الله تَعَالَىٰ القلوب كيف شاء، برقم (٢٦٥٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له، كتاب تفسير القرآن، سورة إبراهيم، باب يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت، برقم (٤٦٩٩)، ومسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، برقم (٢٨٧١).

تَمَّتْ هنا الأرجوزةُ البهيَّةْ عنوانُها «المنظومةُ القلبيَّهْ»

أشار الناظم إلىٰ تمام هذه المنظومةِ التعليمية البهيَّة التي حَوت مُهمَّاتِ المسائل القلبيَّة، من التعريفات والتقسيمات، والفوائد والثمرات، والأنواع والمفسِدات. ولما حوته الأرجوزةُ من مسائلِ هذا العلمِ ومباحثه عَنْوَنَهَا الناظم بـ «المنظومة القلبيَّة».

📖📖📖



بحمدِ ربِّنا العليِّ نُظِمَتْ وبالصلاةِ للأمينِ خُتِمَتْ

ختم الناظم نظمه بالحمد لله تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ، والصلاة علىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **والحمد لغة**: من حَمِدَ يَحمَدُ بمعنىٰ الثناء، وهو نقيض الذم، يقال: حمِدت فلانًا أحمِده، ورجلٌ محمودٌ ومحمدٌ، إذا كثرت خصالُه المحمودةُ غيرُ المذمومة[1]. **واصطلاحًا**: إخبارٌ عن محاسنِ المحمودِ مع حبِّه وإجلالِه وتعظيمِه، وإذا لم يَقتَرِن بمحبةٍ وتعظِيمٍ صار مدحًا[2]. ويكون الحمد لله بالثناء علىٰ الله بصفاتِ كمالِه، ونعوتِ جمالِه، تعظيمًا وإجلالًا.

والعليُّ اسم من أسمائه سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، سمَّىٰ اللهُ به نفسَه في كتابه، قال تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ ﴿٢٥٥﴾﴾ [البقرة: ٢٥٥]، وله صفةُ العلوِّ المطلقِ من جميع الوجوه ذاتًا وقدرًا وقهرًا.

والصلاة في اللغة: الدعاء[3]، والصلاة علىٰ النبي صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ من الله الثناء، ومن الملائكة والناس الدعاء، وسؤال الله أنْ يثني عليه ويزيده تكريمًا، قَالَ أَبُو الْعَالِيَةِ: «صَلَاةُ اللهِ ثَنَاؤُهُ عَلَيْهِ عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ، وَصَلَاةُ الْمَلَائِكَةِ الدُّعَاءُ»[4].

---

(١) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٢٨١)، (ح م د)، ولسان العرب، لابن منظور، (م٣/ ص ١٥٥)، (ح م د)، والصحاح، للجوهري، (م ٢/ ص ٤٦٦)، (ح م د).
(٢) ينظر: بدائع الفوائد، لابن القيم، (م ٢/ ص ٩٣).
(٣) ينظر: معجم مقاييس اللغة، لابن فارس، (ص ٦٧٢)، (ص ل و).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه، تعليقًا، كتاب تفسير القرآن، سورة الأحزاب، باب قوله ﴿إِنَّ اللهَ وَملائكتَه يُصلُّونَ علىٰ النَّبي﴾، (م ٦/ ص ١٢٠).

والأمين صفةٌ للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فقد عُرف بالصدق والأمانة حتى في الجاهلية، وفي قصة بناء الكعبة في الجاهلية: «فَجَاءَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالُوا: أَتَاكُمُ الْأَمِينُ»(١).

وختامًا أسأله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أن يتقبَّل مني هذا النظمَ والشرحَ والتعليقات، وأن يجعلَه في موازينِ الحسنات، فهو سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى ذو الفضل والجود والكرم والأجر والهبات، وجاء كلُّ ذلك مع قلةِ البضاعة، ولكنَّه جهد المُقِلِّ المؤمِّلِ في الخيرات.

وَالحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ، وَالصَّلَاةُ والسَّلَامُ عَلَىٰ سَيِّدِ المُرْسَلِينَ.

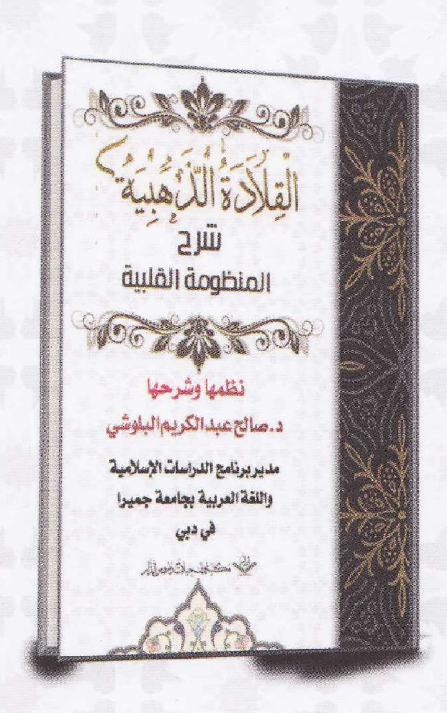
📖📖📖

(١) أخرجه أحمد في مسنده، مسند المكيين رضي الله عنهم، حديث السائب بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، برقم (١٥٧٤٤)، وحسنه الألباني في صحيح السيرة النبوية، (ص ٤٥).



فهرس الموضوعات





من إصداراتنا

مكتبة وتسجيلات دروس الدار